

الجزء الثانى

افتقاد القاعدة العلمية وتأثيرها يساوى

افتقاد المنهجية العلمية الصارمة فى إدارة الأزمات

وفى التناول الإعلامى لملفات الحوار داخل الثقافات وعبرها:

(أمثلة من الواقعين العربى والدولى)

تمهيد للجزء الثانى

نقدم فى هذا الجزء الثانى مجموعة من الأطروحات الإعلامية التى قدمناها فى مجموعة من المقالات التى حاولنا من خلالها تقديم ظواهر «اللوغاريتم المصرى» حيث كان أداء إرتباط البحث العلمى بالواقع مرتفعاً فى حالات قليلة، كما كان فى إدارتنا لحرب أكتوبر رمضان ١٩٧٣ كما أوضحنا فى آخر ما ورد فى الجزء الأول من هذه الدراسة، ثم نوضع فى هذا الجزء الثانى كيف افتقدنا ولازلنا نفتقد المنهجية وإرتباط البحث والتفكير العلمى فى أطروحاتنا خاصة فى قطاع الإعلام الذى يعانى الكثير من الممارسين فى إطار للتفكير العلمى والمنهجى الدقيق، وهو الأمر الذى يفاقم أزمتنا سواء فى تفاعلاتنا الداخلية أو الخارجية ... إن تدشين فكر ومفاهيم «القاعدة العلمية بالمعنى الواسع للمفهوم كما نتبناه فى هذه الدراسة من شأنه إدارة أعلامنا وأزمتنا بأسلوب أقرب للعملية والمنهجية التى سيكون لها عائد إيجابى على كافة أعمالنا التنموية، والله وراء القصد .

أولاً: فى موضوع ملفات الحوار فى واقعنا الثقافى

١ - كم لغة للإعلام فى مصر؟

القارئ للصحف المصرية اليوم لابد له أن يشهد بمساحة غير مسبقة من حرية الرأى والرأى الآخر، ولكن نفس هذا القارئ قد يشهد كذلك أنه عندما يقرأ الصحف القومية فكأنه فى بلد، وعندما يقرأ صحف المعارضة فكأنه فى بلد آخر، والمشكلة الحقيقية تتمثل فى ضياع الحقيقة أحياناً، ووجود تغطيات صحفية متناقضة لدرجة ١٨٠ درجة فى موضوعات بعينها. والشاهد الدقيق على ذلك يحتاج إلى دراسة كاملة، والأمثلة كثيرة للغاية، ويبدو هذا لغياب ما اسميه فى عمليات التفاوض الإعلامى «بمباريات المعلومات الدقيقة» و «آليات الصمت السلبى» حيث تصمت جرائد عن موضوع ما، وتفتح جرائد أخرى على مصراعيه بمعلومات لا ينكرها مسئول أو يصدق على صحتها، وهنا تنشأ بلبلة فكرية، وعدم مصداقية أو فقدان ثقة فى معرفة حقائق الأمور، فعلى الرغم من أن الفجوة التى نعانى منها هى فجوة ثلاثية تتمثل فيما أسميه فى دراسة سابقة «بمثلث الأزمت الثقافية» والذى تتشكل أضلاعه من «فجوة الإدارة» و «فجوة المعلومات» و «فجوة رد الفعل المتأخر».. إلا أننا سنركز هنا فقط على ما يخص الضلع الثانى، والمتمثل فى «فجوة المعلومات» حيث نرى أنها كانت فى إدارتنا للكثير من التفاعلات الإعلامية تتمثل فى افتقاد المعلومات ونقصها عموماً. أما اليوم وبعد «الانفجار المعلوماتى» الذى يشهده العالم، نجد أن هناك ما يشبه «الفوضى المعلوماتية» فى إعلامنا.. فهناك معلومات كثيرة مختصرة وناقصة أحياناً ومعلومات أخرى غامضة، وصاغها «الفلتر الذهبى» للجريدة أو المحرر أو كاتب المقال بما أفقدها حقيقة الأمور التى ينبغى للإعلام الحر إن يحافظ عليها فى أول الأمر وآخره.. والآن وإذا كان واقعنا اللغوى معروفاً بوجود ما يسمى فى علم اللغويات الاجتماعية بظاهرة «الدياجلوزيا» 'Diglosia' وهو مفهوم علمى يشرح وجود «لغتين» أساسيتين إحداهما «فصحى» والأخرى «عامية» وأضيف إليهما ثالثة اليوم تسمى بلغة «الروشنه»، فإن إعلامنا يتسم اليوم بعدة «لغات» هو الآخر، نحاول وصفها بشكل أولى مع التمثيل الموجز فيما يلى :

«١» إعلام لغة الإثارة والصحف الصفراء.. وهذا يحتل مساحة مع الأسف كبيرة فى تفاعلاتنا الإعلامية، ويبدو هذا حتى من تصميم الصفحات.. والصفحة الأولى تتفجر بالعناوين المثيرة واللعب على المعانى، ولا ينقصه صور الإثارة بمختلف معانيها.

«٢» إعلام لغة الصمت والغموض.. فحين يتكلم العالم كله عن موضوع مهم نجد ممثلي هذا الاعلام يمارسون أسلوب النعامة وتجاهل الموضوع برمته.. أو تحجيمه في أقل سطور غامضة.

«٣» إعلام لغة الاندهاش والتجيش والانفعال المنفلت، حيث يترك العنان إلى لغة العاطفة فقط للتعامل مع موضوعات كثيرة، ويكون الأمر في غاية الخطورة عندما يتعامل هؤلاء المندهشون والمجيشون مع موضوعات قد تمس الأمن القومي بصورة غير مقبولة.. فلانوجد خطوط حمراء عندهم من أجل الصالح العام.

«٤» إعلام الاقصاء المتبادل، وممارسة التسلط وادعاءات كثيرة، والعصف بكل المبادئ والقوانين والتقاليد، وكل ذلك تحت مسمى «التنوير» أو «حرية الرأي»، ظلما وخداعا، وهؤلاء الذين يمارسون هذا النوع من الإعلام يسهمون بشكل مزعج في تأزيم العلاقات وتحويل المجتمع الى معسكرات متقاتلة ومتناحرة ومنتقمة من بعضها البعض، هؤلاء من «التنويريين الجدد» أبعد ما يكونون عن مفهوم التنوير الحق.. ويزداد رصيدهم من الضحايا من جراء ما يقترفون، ويصل بهم الأمر إلى الاستخفاف بأكبر رموزنا الثقافية دون حرج وبجرأة غير مسبقة على الحقوق والشخصيات.. وهذا من أسوأ أنواع الإعلام الذي لابد أن يتم ضبطه والزامه وردعه من خلال أجنحة جماعية يضعها كل الغيورين على النهوض بمستوى مفهوم الجودة الإعلامية في واقعنا الثقافي.

«٥» هناك لغة إعلام، غير مرئية مخيفة، حين نسمع هنا من خلال أخبار من يتربحون من المنابر الإعلامية بسرقتها وسرقة أموال المصريين كلهم، وهم من أطلق عليهم مؤخراً تعبير «بارونات الصحافة والإعلام»، ووقائع التحقيق الرسمية فيما احتالوا عليه من الملايين والمليارات أصبحت معروفة للجميع.. مع كل الأسف.

«٦» هناك الجانب المشرق كذلك، والمتمثل في لغة المهنية والحرفية المرتفعة والمنهجية والموضوعية، وهذا ما يبعث بالضوء في آخر النفق المظلم، ويبعث بكل الأمل في استنهاض إعلام حر مسئول. وإذا كنت غير راغب في إظهار أسماء في الفئات الخمسة السابقة فإن جمهور القارئ على علم بهم، كما هم على علم بقيادة الإعلام الحر والمسئول والملتزم في واقعنا الثقافي، الذين تقع على عاتقهم مهمة إستنهاض قدرات هذا الوطن في الاتجاه البناء والسليم .

خلاصة هذا المقال هو الدعوة إلى ضبط عدة معادلات مستقبلية مهمة تتمثل في الآتي :

«أ» معادلة تختص ببناء وتدريب الكوادر الإعلامية القادرة على قيادة الإعلام الحر والمسئول والملتزم بشرفه وقواعد المهنة .

«ب» إصدار تشريعات عادلة تضبط معادلة يتمثل شقها الأول في ردع الخارجيين والمارقين والمفسدين من ناحية، وتمنع أى مستغل لهذه التشريعات لقمع حرية الصحافة وازدهارها..

هاتان المعادلتان تستلزمان العمل على تفعيلهما لتقتصر لغة الإعلام أياً كان توجهه السياسى على لغة الإعلام الموضوعى والمنهجى والمبنى على أصول المهنة واحترامها واحترام فكرة امة ترعى النقد البناء المرتبط، كذلك أمة تبنى الإخاء وترد كيد المعتدين.. والله ولى التوفيق.

(الكاتب-الأخبار ١٦/١/٢٠٠٦)

٢ - إعلام أزمة الحقيقة

وإمكانية التفاهم ثانية !!

تناولنا فى المقال السابق ٢٠٠٦/١/٦ بعنوان «دروس مستفادة من إدارة أزمة الحقيقة» والتي نقصد بها تلك الأزمة التي حسمت مرحلتها الأولى بإجلاء الإخوة الأشقاء اللاجئين من الحقيقة المواجهة لمسجد مصطفى محمود بعد أحداث مؤسفة.. وقد أوضحنا فى ذلك المقال نفاذ كل المحاولات والصبر الشديد حتى نحول المكان إلى نقطة ساخنة وبؤرة غير مناسبة صحياً وبيئياً وأخلاقياً.. مما كان سيؤدى إلى أن تتفاهم الأزمة أكثر فأكثر.. ولقد رصدنا أوجه الخلل التي يتعين علينا الاستفادة منها لمنع تكرارها، وذلك بان ننهج أساساً مبدأ استباق ومنع الازمات.. والمتابع للملف هذه الأزمة يتيقن تماماً أن لهذه الازمة توابع.. ينبغي إدارتها بحكمة وعلم وبصيرة.

أولاً : إن أكبر خلل فى إدارة هذه الأزمة قد تمثل فيما يسمى «إعلام الأزمة».. والمعروف أن هذا المكون هو من أهم مكونات إدارة أى «أزمة»، خاصة فى عصر العولمة والفضائيات وسرعة إنتقال الأحداث والتغطيات بشكل غير مسبوق فى التاريخ يحتم الإهتمام الأفضل بكثير بهذا المكون.. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تم إدارة معظم تفاعلات أزمة خليج ١٩٩٠ وغيرها فى التلفاز من خلال السيطرة على الصورة المواتية من قبل مدير تلك الازمات إلى الحد الذى شاعت معه عبارة الكاتب الإنجليزى المعروف : «وما الدنيا إلا مسرح صغير» بعد تحويرها لتكون «وما الدنيا إلا تليفزيون ١٤ بوصة».. مع الأسف كان مكون إدارة إعلام الأزمة فى «أزمة الحقيقة» ضعيفاً للغاية.. لماذا؟!.. لأنه لم يوضح ما هو خاف عن كل من ينتقدون الإدارة المصرية داخلياً وخارجياً الآن.. وما خفى وكان من الممكن أن يؤثر إيجاباً على عملية إدارة الأزمة يتمثل فى الآتى:

- ١ - لم يوضح إعلام الأزمة، خاصة المرئى، كم الوساطات العديدة، خاصة السودانية منها لشخصيات لها وزنها، والتي قامت بإدانة الموقف الخاطئ للاجئين.. وكان يتم ذلك بشكل من التركيز.
- ٢ - لم يوضح إعلام الأزمة على مدى المدة الزمنية الطويلة التي عبرت عن الصبر فى إدارة الأزمة.
- ٣ - لم يوضح إعلام الأزمة الخطأ التفاوضى المركب لمفوضية اللاجئين، والذي تعرضنا له بالتحليل فى مقالنا السابق المشار إليه أعلاه.

٤ - لم يركز «إعلام الأزمة» على مستوى التدهور البيئي والصحي والأخلاقي الذي انفلت.

٥ - لم يركز «إعلام الأزمة» على أحداث انفلات الأزمة في مرحلتها الأولى حين تم تكسير الإخوة اللاجئين للسيارات في بداية الأزمة وتم احتواء الأمر بهدوء «غريب» دون احتساب هذا الأمر أمام الرأي العام الداخلي والعالمي والذي كان يعطى أكبر المبررات لحسم هذه الأزمة أمام أعين العالم.

٦ - نهان «إعلام الأزمة» في توضيح خطورة السيناريوهات التي قد تحدث إذا لم يتم حسم الأزمة.. بل على العكس كانت هناك بعض التصريحات الواثقة دائماً أكثر من اللازم «بأن الأمر عابر» ومسيرهم يزدهقوا.. فإذا بالأزمة تتطور نحو «الكابوس» أمام هذا الأداء غير الموفق.

٧ - القيام المفاجئ جداً بحسم حدث فيه خسائر كبيرة، اليوم ماذا عن إدارة إعلام المراحل التالية لهذه الأزمة التي ينبغي السيطرة عليها؟.. ومحاولة الإجابة ينبغي أولاً أن نعرف ملامح هذه المرحلة التالية وهي :

١ - وجود ١٢ منظمة حقوقية تدعو الأمم المتحدة لتقصي الحقائق حول فرض اعتصام اللاجئين السودانيين بعد أن قدرت المنظمة المصرية عدد القتلى بـ ١٥٦ شخصاً من الجانبين المصري والسوداني.

٢ - وجود أجندات واضحة ومعروفة بمحاولة استغلال أى حدث لزيادة البلبلة والتوتر والتدخل في الشأن الداخلي للدول العربية، ولا شك أن هناك دائماً من يتربص بالعلاقات المصرية السودانية الحميمة.

إذن هناك من يحاول في إطار هذه الأزمة واستغلال تداعياتها أن يعصف بالعلاقات المصرية السودانية وإلغاء اتفاق الحريات الأربع الذي كان ينبغي أن يكون نواة متميزة للعلاقات الأخوية.

٣ - وجود إعلام معارض متحيز للانفعال واللاعلمية، ولهذا سياق آخر..

خلاصة القول في هذا التحليل الأولى لإدارة الأزمة ومحاولة استباق توابعها التي قد تكون الأخطر، هو فهم ما المقصود بمكون «إعلام الأزمات» وأهميته القصوى.. بالطبع إلى جانب السياسات والأفعال الحكيمة.. وبالتالي ينبغي التحرك لتفعيل «إعلام أزمة» مبتكر.. حتى ولو جاء في هذه المرحلة المتأخرة.. ولهذا عودة أخرى.. والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان..

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/١/١٣)

٣ - دروس مستفادة من إدارة «أزمة الحديقة»!!

بعد تقديم العزاء فى ضحايا ما يمكننا تسميته «بأزمة الحديقة» والتي نعنى بها أزمة احتلال بعض اللاجئين من الإخوة السودانيين للحديقة الكبيرة المواجهة لمسجد مصطفى محمود والإقامة فيها عنوة ورفضهم الخروج منها إلى أماكن كريمة أعدتها الدولة لهم كتعبير عن عمق الروابط الحميمة بين البلدين الشقيقين - ترى أهمية استخلاص وتدارس الدروس المستفادة من عقلية إدارة هذه الأزمة، خاصة أنها من الأزمات التي وصلت إلى مرحلة تستعصى على الإدارة التفاوضية لها .. وكان لابد من إنهائها بعد أن وصلت الأمور إلى مرحلة خطيرة للغاية من التدهور البيئى والأوبئة فى المكان، ووجود أجواء من التوتر الشديد فى هذه المنطقة، ووجود حالة من الخروج الصارخ عن قوانين وتقاليد البلد.

والدروس المستفادة تتمثل فيما يلى:

١- مرة أخرى أكرر وأركز على افتقادنا إلى مفهوم استباق ومنع الأزمات Crisis Prevention And anticipation .

وأتصور أن سيناريو منع مثل هذه الأزمات واستباقها كان سهلاً وميسراً.. ويتمثل هذا السيناريو فى السؤال التالى : هل يمكن لأي إنسان فى وجود قوة للأمن للحفاظ على قواعد المرور وسلوكيات الطريق بشكل دورى وحاسم كما كنا نرى «العسكري أبو صفارة» فى الأفلام «الأبيض والأسود القديمة» حيث كان لهذا العسكري هيئته الكبيرة - هل كان يمكن لقليل من الأفراد أن يجلسوا فى حديقة لوقت أطول من اللازم، ناهيك عن أن يتوا ليلة بعد ليلة ويتكاثروا عددهم؟.. ما الذى حدث؟ أود أن ألفت الانتباه هنا إلى أن استباق هذه الأزمة ومعها كان ممكناً بكل سهولة فى بدايتها وليس بعد وضع اليد المتعسف الذى رأيناه من اللاجئين، والمشكلة تكمن فى أن مثل هذه الأزمة ممكن أن تتكرر مع الأسف.. فلا بد أن تعود لدوريات المرور وجودها الأكثر كثافة والأكثر صرامة.. الخلاصة هنا أن حل «الاستباق» والمنع سهل وميسر .. وخطورة الأمر أن نترك الأزمات لكي تحدث وتتفاقم، وبالتالي تبقى مخاطر الإدارة وغموضها.

٢- فى أزمة الحديقة المشار إليها لا بد من العدل فى الأحكام، فكما ذكرت جانباً من التقصير يخلصنا، فإن مفوضية الأمم المتحدة قد لعبت دوراً سيئاً للغاية فى تفاقم هذه الأزمة على عدة أصعدة، ومن أهمها : إطالة أمد الأزمة ومسك الحبل من المنتصف وتجاهل أو عدم معرفة أمر حيوى للغاية يتمثل فى أن مطلب اللاجئين غير قانونى.. فبعد اتفاق ماشاكوس والتوقيع عليه، تم إلغاء بند السماح بالهجرة لدول

الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة وكندا.. من هنا فإن مقولة اللاجئين أو المفوضية بأنه مسموح لهم الإقامة في بلد مجاور لحين الحصول على الهجرة إلى تلك الدول هو أمر غير صحيح، وعدم معرفة أو تجاهل هذا البعد قد أطلال من أمد الأزمة وأفهم اللاجئين عكس ما كان ينبغي لهم أن يعرفوه ويفهموه ويعوه.

٣- الدرس الأخير المستفادة من هذه الأزمة أنها أزمة بين طرفين، أصر فيه طرف اللاجئين على إحراق كل فرص التسوية الأخوية، حيث ضربت بعرض الحائط كل المقترحات الأخوية والصادقة في استقبال الأخوة من السودان الشقيق ليقيموا في الأماكن المخصصة لذلك ولينضموا إلى أكبر جالية عربية سودانية، حيث تقدر الجالية السودانية في مصر بعدد من ثلاثة إلى خمسة ملايين أخ سوداني.. وليس لدى إحصائية دقيقة.. ولكن العلاقة الحميمة بين أبناء وادي النيل معروفة وعميقة، ومن هنا كان خروج الإخوة اللاجئين عن الأعراف والتقليد وخرق كل القوانين المعمول بها يحتم بعد وقت طويل من التفاوض والصبر الطويل أن يتم التعامل مع الأزمة بإنهائها وحسمها، فلو كان من احتل الحديقة من المصريين لسبب أو لآخر.. لثم التعامل معهم بنفس الأسلوب الذي يؤكد على احترام القانون.

أما فيما يتعلق بإعلام الأزمة، وهل قام الإعلام المصري بتغطية متواصلة وإيجابية لتشرح للعالم داخليا وخارجيا أهمية حسم هذه الأزمة في النهاية، وأن الطرف المناشد بالالتزام بالقانون وبمنع أضرار بالغة بالبيئة قد استنفد كل طرق عدم حسم الأزمة بوليسياً.. فهذا الأمر بحاجة إلى التأمل والتساؤل، وربما الأسف.

والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار/١/١/٢٠٠٦)

٤ - أسئلة الصمت والإنصات في المشهد الانتخابي

يحتاج ملف «المشهد الانتخابي الرئاسي» إلى المزيد من التأمل والدراسة، حتى بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية التي أوجدت مناخاً من حرية التعبير والرأي غير مسبوق في التاريخ السياسي الحديث لمصر... وفي هذا المقال أريد أن أركز على ما نسميه في علم التفاوض «آليات الصمت والإنصات» وهو موضوع مركب، ويختلف الأمر فيه من ثقافة إلى أخرى... فعلى سبيل التوضيح، أراد أحد الطيارين المصريين منذ سنوات أن يهبط اضطرارياً بطائرة مدنية بسبب وجود بعض المشاكل الفنية بالطائرة، وكان بالقرب من قاعدة جوية عسكرية قبرصية، فطلب من برج المراقبة القبرصية الهبوط الاضطراري، وساد الصمت في هذا الحوار، وتصور الطيار المصري أن هذا الصمت يعني الموافقة فبدأ في الاقتراب من القاعدة الجوية، وهنا تصدت له طائرات قبرصية وأطلقت النيران التحذيرية.. وعندما تم استجواب الطيار فيما بعد، تيقن أن «الصمت القبرصى» مختلف، فلم يكن «السكوت علامة الرضا» في قبرص.

إن المثال السابق يوضح أهمية فهم آليات ومعاني «الصمت» في الحوار.. والذي أثبتت الدراسات أنه قد يعنى أفعال قول عديدة. فقد يكون «الصمت» بمعنى الرضا والموافقة أساساً في ثقافة، ويكن بمعنى «الرفض» أساساً في ثقافة أخرى، كما أن للصمت داخل نفس الثقافة معاني أخرى يحددها سياق الحوار... فالصمت قد يعنى السيطرة على تفاعلات غير منضبطة، وقد يكون للصمت في سياق آخر معنى «التجاهل» أو «الاعتراض» أو «الإحجام» أو «التسلط والعناد» عندما لا تتم استجابة محاور لآخر، وهو أمر بحاجة لمزيد من التفاصيل في سياق أمثلة أخرى لا يتسع لها المجال هنا.

كذلك فإن هناك مستوى آخر لدراسة آليات الصمت والإنصات، وهو ما نسميه في لغويات التفاوض.. بضبط معادلة «الإيقاع» و«التوقف» و«إعطاء فرصة الكلام» أثناء الحوار.. فالإيقاع (PACE) للمتحدث مثلاً، قد يعنى الحماس في الكلام وقد يعنى السيطرة على ساحة الحوار عندما يكون سريعاً ومتلاحقاً ولا يترك «وقفات ولو قصيرة (PAUSE) أثناء الكلام أو وقفات أطول لإعطاء فرصة للآخرين للتدخل والمشاركة في الحوار (Turn Taking). ودراسة إيقاع المتحدث مهمة جداً لأن ضبط الإيقاع من ناحية البطء أو السرعة.. يكشف الكثير عن شخصية المتحدث، خاصة فيما يتعلق بإيقاع الخطب السياسية والحوار السياسي وتدفق الحديث في اتجاه دون آخر.. ومن أطرف الأمثلة ما ذكره موضع كلام محذوف الوزراء الإسرائيلية المعروفة، حينما كان يعترض على بعض مطالبها.. فتفتح حواراً عالياً الإيقاع في اتجاه

قصص الكوارث والمآسي التي عاشها اليهود... فكان يقول لمساعديه «لتهدة ذلك الإيقاع»... لما تيجي «العمة جولدا» أعطوها ما تريد... «ثم خليها تقابلني بعد ذلك».

كذلك فإن أمر الإيقاع معهم مهم في الخطب الدينية، فأنت تدخل لتستمع لخطيب من الخطباء، فتجد لديه إيقاعاً هادئاً متوازناً يعطيك الشعور بالاطمئنان والطمأنينة والأمن وقدسية المكان، وهناك خطيب - أو خطباء في الواقع - ممن يحتاجون إلى تدريب وتدريب... فتجد أحياناً إيقاعاً لاهئاً وزعيقاً يصاحب توبيخ هذا أو ذاك وتشعر أن ذلك الخطيب غاضب بسبب أو من غير سبب، هذا إيقاع غير متوازن يفقد الخطبة أهم أركانها.. وكم مر على العالم العربي خطباء في مجال السياسة أو الوعظ ممن يطلق عليهم «الخطباء الغاضبون على طول الخط».. فكانت خطبهم السياسية توبيخاً لهذا وذاك.. وارتفاعاً مستمراً في نغمة العداء والكراهية.. وكان أحدهم من خطباء السياسة لا ينهي خطاباً إلا ويقول فيه «فليخسأ الخاسئون».. تلك العبارة التي كانت تتوافق مع خطاب هائج الإيقاع من أوله إلى آخره.. فجلب هذا الخطاب «أم الكوارث» التي نعانى منها إلى اليوم.

تحتاج خطب وتفاعلات المرشحين للرئاسة دراسة تفصيلية كاملة، ونلقى بالضوء هنا على أسئلة ما نسميه بأسئلة الصمت والإنصات في المشهد الانتخابي، ومنها ما يلي: «١» لماذا التقطنا وفي أكثر من خطاب لأكثر من مرشح طلب هذا المرشح من جمهور الحاضرين بأن يمنحوه فرصة التحدث في هدوء، بل لقد استمعت إلى ما يشبه المناشدة من أكثر من مرشح للجمهور... - أي جمهوره - بأن يسمحوا له باستكمال ما يريد أن يقوله.. لقد كان من أطرف تلك التفاعلات ما أورده جريدة الحياة اللندنية في خبر في صفحتها الأولى بتاريخ ٢٥/٨/٢٠٠٥.. فلقد طلب أحد المرشحين مراراً وتكراراً من أحد «الهيئفة» أن يسكت ليتمكن من إكمال ما يريده.. ولكن هذا الرجل لم يتوقف، فقال - ولم يدرك أن الميكروفونات والفضائيات تسجل على الهواء - «هو الواد ابن... محدش عارف يسكته!».. خارجاً في ذلك عن شعوره. ويعلق الإعلامي المعروف عمرو أديب في برنامج القاهرة اليوم: «إنه لأول مرة يحدث اجتماع في جريدة الحياة ليسمح بنشر الكلمة الخارجة التي قيلت ووجدوا أن هذا وارد، ونشروا التعبير الخارج» السؤال هنا يتعلق بآليات الإنصات والاستماع في هذا السياق وفي سياقات أخرى مماثلة لنسأل عن موقع هذه الآليات في تفاعلاتنا الثقافية. ولعلنا أتذكر هنا خطاباً مهماً للرئيس الراحل جمال عبد الناصر - رحمه الله - حينما قال في خطاب له لما كان يسمى «بالمؤتمر القومي»

أثناء فترة احتلال إسرائيل لسيناء الغالية : «أنا لو عايز أسترده سيناء أستردها بكرة..»
فهتف الهتيفة وصفقوا وانتابتهم حالة وطنية خالية من الإنصات المطلوب.. وهنا
قاطع جمال عبد الناصر هتاف الهتيفة.. معترضاً عليهم قائلاً: «أنا باقول أنتم
المثقفون.. اللي تستنوا لما تسمعوا الكلام كله..» وأكمل قائلاً : «إذا أردت إستعادة
سيناء بكرة.. ممكن أكلم جولدا مائير وأقول لها هاتي سيناء وأنا خلاص مليش دعوة
بقضية فلسطين أو بالدول العربية.. إلى آخره .. إنما جمال عبد الناصر يرفض ذلك»
وهنا عادت الهتيفة وصفق المصفقون.. ولكن كان التصفيق في موضعه هذ المرة.

إن المشهد الانتخابي بحاجة إلى دراسة متكاملة، ومن بينها فهم آليات وأسئلة
الصمت والإنصات المتعددة، والتي لا تزال بحاجة إلى أن ندخلها في عمليات التعليم
الأساسي.. وتظل الأسئلة المتعلقة بها - سواء في حالات سوء الفهم أو في حالة
إيقاع الخطاب السياسي والديني - بحاجة إلى دراسة تفصيلية .. ويبقى آخر تساؤل
في سياق المشهد الانتخابي، وهو هل تتحرك الأغلبية الصامتة لكي تقدم على
المشاركة الأكثر فاعلية في تفاعلات الوطن السياسية والتنمية؟! وهل نحتاج إلى أن
نزيل من أمام هذه الأغلبية الصامتة المزيد من العوائق الهيكلية لتبديد صمتها وتحويله
إلى طاقة إيجابية؟ فنحن لا نزال في إطار شبه ثنائية بين فريق صاحب ومحتقن
وإيقاعه غاضب على طول الخط، وأغلبية صامته سلبية، والأمر يتطلب تحقيق التوازن
والخروج إلى تفاعلات أخرى أكثر إيجابية وفاعلية لصالح أجندة هذا الوطن الغالي
ورفعته وتقدمه، والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار/٨/٩/٢٠٠٥)

٥ - فى الكشف عن اعلام الحملات : حالة التعامل مع الأزهر

ولماذا سميت مصر بلد الأزهر ؟

هناك عدة أوصاف استعارية وصفت بها مصرنا الحبيبة وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الماضى والحاضر والمستقبل، ومنها : مصر «أرض الكنانة»، و«المحروسة» - دائماً بإذن الله - ومنها كذلك «مصر بلد الأزهر».. وهذه الصفة لم تكن من صنع المصريين فى الأساس، بل من صنع الملايين فى مشارق الأرض ومغاربها الذين عرفوا مكانة الأزهر الشريف كجامع وجامعة معا فى أنحاء العالم المختلفة قبل أن يأتى إلى الوجود الإعلامى المتستر وراء مصطلح «الحرب ضد الإرهاب»، واليوم تحاط هذه الجامعة بحملات إعلامية عاتية، وهذه الحملات جزء من الحملات التى تتعرض لها مصر منذ عدة سنوات وتستهدف .. وهذا الكلام، بالطبع لا يعنى بأى حال أن الأمور على أحسن ما تكون .. لا .. الجامعة الأزهرية وبكل تأكيد مثلها مثل جميع جامعاتنا المصرية العريقة تحتاج إلى إصلاحات إدارية جذرية وعلمية كبيرة جداً، ولقد أوضحت ذلك فى بحث تفصيلى لى بعنوان «إدارة الأزمة الممتدة للجامعات المصرية: منظومة ثقافة الامتحانات كمائق لتفعيل منظومة البحث العلمى» وهو بحث تم تقديمه فى فاعليات مؤتمر التعليم العالى فى مصر: خريطة الواقع واستشراف المستقبل، والذي عقد فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة مؤخراً.

وسوف أتعرض لهذه الأزمة الممتدة فى مقال آخر - بإذن الله - ولكن ما أريد أن أؤكد عليه هنا وبشكل أولى، يتمثل فى عدة منظمات لابد أن تكون حاضرة أمامنا ونحن نناقش ملف الجامعة الأزهرية الذى أصبح مفتوحاً فى وسائل إعلامنا بالإضافة إلى وسائل الإعلام الأجنبية، وعلينا فهم أنماط التفاعل هنا وهناك ونحن ندير هذا الملف الحساس.. وهذه المنظمات تتمثل فى الآتى:

١- لابد من الحديث الحر وتوجيه النقد البناء، ولكن مع إنزال الأزهر الشريف مكانته الغالية.. فهو الجامعة التى لا تزال تسمى «بأكسفورد الشرق الأوسط» لدى العارفين بهذه المكانة من الأجانب Oxford of the M.E. ولقد وردت هذه التسمية فى سياقات عديدة، ومنها : فى فيلم وثائقي قدمته الـ BBC، فليس من منطق الحوار البناء الإمساك بمعاول الهدم والحديث عن «الأزهر بين الإلغاء والإبقاء» أو إلغاء الكليات العملية وإبقاء الدينية، إلى ما ذلك من أطروحات قد ترتبط فى عمق بنيتها مع أطروحات هذا النفر المناهى بإلغاء الشريعة الإسلامية من الدستور المصرى... ومثل هذه الدعوى كلها إقحام ما لا ينبغى إقحامه وربطه بموضوعات مثل «حقوق

الاقباط» تارة وأحياناً يتم ربطه بإدعاء فاسد بأن الجامعة الأزهرية تعد مصدراً من مصادر «العنف والتطرف».. وكل هذه الإدعاءات المجحفة والمختلفة إذا كانت موضع مطالب بالداخل من قبل قلة فهي لا تنفصل عن منظومة مرفوضة تعد في الخارج لنا جميعاً، وسوف أعود لهذا الموضوع الخاص بادعاءات إلغاء الشريعة الإسلامية من الدستور والتي تنم عن عدم معرفة عميقة بالثقافة السياسية الدينية لبلد ما - وهو هنا مصر - وطبيعة التشريع المصرى فى هذا الصدد.

٢- فيما يتعلق بمفهوم «دافعى الضرائب» وحق الإخوة الأقباط للدراسة بالأزهر - أو بكلياته العلمية - أحيل القارئ الكريم المهتم إلى ما ورد فى عمود للكاتب الكبير إبراهيم سعده بتاريخ ٢٤/١/٢٠٠٦ ، وأضيف إلى ما ورد .. أن للأزهر أوقافه وممتلكاته التى أصبحت تحت يد الحكومة منذ فترة طويلة.. ولا عجب فى كل حال أن تكون هناك جامعة إسلامية.. فما المانع فى وجود جامعة كاثوليكية فى دولة أغلبها من الكاثوليك مثلاً وما يتعلق بهم من فلسفات، وهناك كلية للاهوت فى مصر.. وهذا أمر طبيعى لدراسة الدين المسيحى، كذلك فإن طلاب المعاهد الأزهرية لا يسمح لهم بالدراسة فى الجامعات المصرية الأخرى.. من هنا فإن الجامعة ملتزمة بإعطاء كل الأولوية لهم.. أما فى مسألة التركيز على الشئون الدينية فقط وإلغاء الكليات العملية فهذا خطأ كبير؛ لأن بعث دور الحضارة الإسلامية الإيجابية للعالم أجمع يتطلب أن يكون الفقيه فى الدين من ذوى التخصصات العلمية الأخرى، فكل علماء الحضارة الإسلامية الذين انتشلوا أوروبا من العصور المظلمة وساهموا فى تأسيس النهضة الأوروبية حقاً - وكما ورد فى محاضرة الأمير تشارلز الشهيرة فى جامعة أكسفورد عام ١٩٩٣، وهى على الإنترنت - كانوا من العلماء الفقهاء.. يقول الأمير تشارلز إن ما لا يعيه الغربيون - وأضيف (والبعض) فى واقعنا - أن العلم والإسلام وجهان لعملة واحدة.. وهذه التركيبة هى التى جعلت المسلمين يسهمون فى استنهاض عصر التنوير الأوروبى بإجتازاتهم العلمية المعروفة حينذاك، وعلماء المسلمون هم الذين عرفوا أوروبا بتراث أرسطو الذى كان مجهولاً للأوروبيين.

والحديث فى هذا السياق يحتاج إلى تفاصيل وسياق آخر.

٣- إن تاريخ الأزهر الطويل يجعله الملاذ فى الحن، فهو المكان الذى اعتلى منبره فى سماحة وطنية رجال الدين الأقباط أثناء ثورة ١٩١٩، وهو المكان الذى خطب منه عبد الناصر ليرد على إنذار الإستسلام الموجه لمصر من قوى الطغيان والعدوان فى عام ١٩٥٦، وهو المكان الذى تخرج منه عشرات من رؤساء الدول، والملايين من الشخصيات فى دول العالم المختلفة، وهو وسيظل المنبر لمواجهة كل الغزوات الموجهة لهذه الأمة.. وهذا أيضاً لا يمنع من النظر إلى كل ما قد يؤدى إلى

تجنب أى سلبات فى هذا الدور وتفعيل كل ما يؤدى إلى تعميق رسالته، والتي هى رسالة الإسلام والتي جاء بها الرسول محمد ﷺ ليكون «رحمة للعالمين»، أى لكل البشر. فهذه الرسالة هى رسالة سامية وهدفها الإسهام الحضارى والتفاعل الإيجابى بين الجميع فى هذا العالم .

٤- إن ما يتردد - إجحافاً - عن أن الجامعة الأزهرية تعتبر مصدراً لتفريخ الإرهاب والتطرف، ما هو إلا محض افتراء وأكاذيب وتلفيق. يقول د. الفقى فى مقال سابق له عن الأزهر والسياسة «الأهرام ٢٠٠٣/١٠/٧» إن الأزهر الذى فى أنحاء العالم عنى بابتعاث النابهين من رواده لكى يكونوا رموزاً لصحيح الإسلام فى أنحاء العالم، هو الأزهر الذى لم يقع فريسة موجات التطرف الدينى فى العقود الأخيرة إذ أن كل المؤسسات تؤكد أن غالبية من سقطوا فى براثن المرض اللعين كانوا فى معظمهم من خريجي الجامعات الأخرى، وكان أقل القليل فقط ممن ينتسبون إلى الأزهر الشريف؛ لأن كل من يدرس الفقه والشريعة ويقوم على الدعوة يصبح معافى من نزعة التشدد ويبرأ من مرض التطرف ويدرك سماحة الإسلام ورحابة نظره تجاه الديانات الأخرى.. يذكر د. الفقى فى نفس ذلك المقال أن طلبت السلطات النمساوية حينما كان سفيراً فى فيينا أن يشرف الأزهر الشريف على تعليم من يقومون بتدريس الديانة الإسلامية لأكثر من ثلاثمائة ألف مسلم نمساوى على نفقة دولتهم إعترافاً بقيم الأزهر وابتعاد هذه القيم عن الغلو والشطط. إن من يدرك الدور الحقيقى للأزهر لصالح مصر كلها، خاصة فى إطار ما نشهده من أزمات ممتدة داخليا ودولياً، يدرك كيف يمكن لنا دعم هذا الدور وتطويره لصالح مصر كلها، وهذا لا يكون بالمعلومات الخاطئة أو بالإلغاء والإقصاء أو بالضغط السلبية. والتفاصيل عديدة فى إطار هذه النقطة، ولقد تناولتها فى دراسة تفصيلية نشر جزء كبير منها فى مجلة «سطور» بعنوان فى إدارة أزمات «التنوير» و«التكفير» لخوفك الاشتباكات الخاطئة فى واقعنا الثقافى «مجلة سطور العدد ٤٥ أغسطس ٢٠٠٠» .

إن النقاش الحر والموضوعى بخصوص أى ملف فى واقعنا الثقافى يعد أمر حيويًا ومطلوبًا وضروريًا.. وملف الأزهر وتطويره، خاصة فيما يتعلق بتطوير الجامعة الأزهرية أصبح مفتوحاً.. ولكن على أن يتم ذلك بفهم واع لمكانة الأزهر العريقة ودوره العريق لصالح مصر.. فمصر بلد الأزهر.. والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/٢/٢)

٦ - فى إدارة أزمات «التنوير»، و«التكفير» :

فك الاشتباكات الخاطئة ..

الهدف الرئيسى من هذه الدراسة هو محاولة الإسهام العلمى لاستخلاص دروس من أزمات ممتدة فى واقعنا الثقافى، ينبغى معالجتها الآن من جذورها وفك الاشتباكات الخاطئة بخصوصها، وهى تتعلق فى سياقنا هذا بملفات «التنوير» و«التكفير» التى نفتحتها من وقت إلى آخر، وتشهد التفاعلات بخصوصها ما يسمى فى علم إدارة الأزمات «بانزلاق الأزمة» (Crisis Slide)، حيث نشهد أنماطا للبرهنة تسعى إلى استهداف الآخر وإقصائه، وتستحضر معها كل متطلبات وأجواء المباريات الصفيرية التنافسية. كما نرى فى خضمها تطورا للأزمة مع سعى أطرافها للزج بأطراف أخرى أو تدخل هذه الأطراف بكامل إرادتها إلى ساحة التفاعل، وتتفاقم الأمور إلى الحد الذى يتم معه حسم أزمة أخرى - عادة - غير الأزمة الحقيقية وأسبابها الفعلية حين إشعار آخر وتكرار لاحق للأزمات .. وهكذا..

وتأتى هذه الدراسة كامتداد لدراسة أخرى للكاتب بعنوان «مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعى والسياسى» (الكتاب ١٩٠ لعام ١٩٩٤ سلسلة عالم المعرفة - الكويت).

وإذا كانت تلك الدراسة السابقة قد تناولت - ضمن ما تناولته منذ ست سنوات - ملفات «الاختلاف حول التنوير» فى واقع التفاعلات الثقافية وأسئلتها، إلا أن تناول هذه الأنماط بالتحليل فى إطار «أزمة الوليمة» الأخيرة وما استجد فى إطارها لمن المتطلبات الضرورية من أجل الوصول إلى مرحلة نستبق فيها مثل هذه الأزمات ونحتويها، سعياً إلى الانطلاق إلى الأمام لمعالجة قضايا أكثر أهمية وصراعات أكثر خطورة تنتظرنا فى ساحات عديدة. فى هذا الإطار العلمى الأشمل نقدم تحليلاً نوعياً لأهم ما ورد فى ملف «الوليمة»، وهنا نتعرض لمقال له دلالاته الخاصة من حيث كونه عينة ممثلة توضح كيف تتطور الأمور إلى حالة من الاشتباكات الخاطئة، وهذا المقال كتبه أ.د. جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة فى مصر بجريدة الحياة بعنوان «طلاب الجامعة الأزهرية» فى ٢٤/٥/٢٠٠٠ .

وهنا نقول ومع الاحترام لشخصه الكريم إن مقاله ليمثل تجسيدا حيا لظواهر تفاعلية لا تخدم إلا تفاقم الأزمات، فإذا كان ما أخذ على أسلوب حزب العمل فى «أزمة الوليمة» كونه أسلوبا تخريزيا ومتسرعا فى توجيه نهمة الإلحاد والكفر لأطراف بعينها دون دليل دامغ وتبيين للأمور، فإن أسلوب اتهم «الآخر»، وهو هنا «طلاب

الجامعة الأزهرية وأساتذتها «بالجهل» و«التطرف» و«الظلامية» و«معاداة العقل» و«التعصب» ودون دليل دامغ، لهو أيضاً نوع من أنواع الظلم البين كذلك، وهذا مع الأسف ما جسده مقال الدكتور عصفور في حق طلاب الجامعة الأزهرية وأساتذتها وهو ما يستوجب الرد والتفنيد للكشف عن آليات خطاب تفاقم الأزمات واستخلاص الدروس المستفادة.

ولعلنى أتناول هنا بداية الأسئلة التالية:

هل ما ذكره الدكتور عصفور عن طلاب الأزهر وأساتذته صحيح؟ وهل كان عنده الدليل لما ذهب إليه من إساءات بالغة، أم أن القضية والحقائق مختلفة تماماً عما ذكره؟ وهل يهدف خطاب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة استنهاض خطاب ثقافى من شأنه تجنب حالة التناحر والتعسكر الراهن، أم أنه من شأنه إحداث انقسام خطير وإهدار للرصيد الثقافى لمصر فى نهاية المطاف؟

وبدايةً لابد من ذكر أهم ما ورد فى مقال الدكتور عصفور، حيث قال نصاً: «طلاب الجامعة الأزهرية الذين أحالهم نظام تعليم متخلف إلى قنابل موقوتة من العنف الجاهل أو جهل العنف بلا فارق كبير. ولا مفر من تأكيد الجهل فى هذا المقام، فالتعليم الأزهرى لا يزال يكتفى بأدنى الدرجات فى التعليم العام والجامعى على السواء، ولا يجد الطلاب الذين ينتسبون إلى هذا التعليم نقى عقولاً مفتوحاً، يصل بينهم وبين التراث العقلانى العظيم لحضاراتهم الإسلامية، فيظل أغلب هؤلاء الطلاب أسيرى ثقافة نقل وتقليد تعادى العقل، ولا تشجع على الاجتهاد أو الاختلاف، والنتيجة هى شيوع الجهل الذى يتكاثر كما تتكاثر الظلمة، والتعصب الذى ينمو أسرع من ورد النيل القاتل، والاندفاع إلى العنف الذى ينتظر إشارة، فكل شئ ممكن فى غياب الوعى وغلبة الجهل» ثم استشهد سيادته «بأبلغ دليل» لما ذهب إليه. فيروى قصة أخبره بها الأستاذ عزت القمحاوى عن حديث مع ثلاثة من طلاب المظاهرات «تخلفوا قليلاً عن زملائهم لسبب لا يليق ذكره فى هذا المقام» وتبين من خلاله أنهم لم يقرءوا الرواية، وأنهم خرجوا للمظاهرة بناء على مقال كتبه الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر، ويضيف الدكتور جابر قاتلا: «وما يعينى فى الحكاية كلها هو دلالتها التى تتصل بما أريد تأكيده من تحول هؤلاء الطلاب المساكين الأبرياء إلى أوعية يصب فيها أساتذة التطرف ما يريدون، وإلى أبواق تنقل ما يقال لها بأصوات أعلى، وإلى ضحية نظام تعليمى يصوغ عقولهم على شاكلته، فيغدو هؤلاء الطلاب كيانا مستعداً لقبول أفكار التكفير بلا طلب للدليل أو البينة».

وانتهى كلام الدكتور عصفور مشكوراً بالترحم على علماء الأزهر المستنيرين أمثال محمد عبده، ومصطفى عبد الرازق، وغيرهم!

وبداية أقول إن الأزهر وغيره من مؤسسات الدولة ليس فوق أى نقد بناء وملترم من أجل إصلاح الشأن العام، ولكننى اندهشت حقاً، بل وأسفت على هذا الأسلوب الاختزالى والتعميمى الذى يسىء فى المقام الأول لأبسط القواعد العلمية فى البرهنة وإقامة الدليل قبل أن يسىء للأزهر وأساتذته وعلمائه.. فمن أين أعطى الدكتور عصفور لنفسه الحق فى وصم ما يزيد على مائة وتسعين ألف طالب وطالبة من طلاب الأزهر الشريف - منهم ما لا يقل عن العشرين ألفاً من الطلاب الذين يأتون من أنحاء العالم من ذوى الخلفيات الثقافية واللغوية المتعددة؟! من أين له أن يصمهم بالجهل و«معادة العقل» و«التعصب» و«التطرف» هم وأساتذتهم بهذا الاختزال المؤسف؟!.. لقد كان دليل الأستاذ الدكتور - «وعلى حد وصفه أبلغ دليل» - مستمداً من مثال نقل عن طرف آخر، والحوار عابر فى الشارع مع ثلاثة طلاب تخلفوا عن المظاهرة «لأسباب لا يليق ذكرها» على حد تعبيره؟! إن مثل هذا الدليل لا يستند إلى عناصر التأهيل العلمية، ويعتمد على ما نسميه فى مفاهيم الحجج بالتدليل «بيانات تدعيم فاسدة» (Degenerate Data)، لو كان للدكتور عصفور أن ينتقد حالة عابرة من حالات التفاعل التى صاحبت تلك الأزمة من خلال مثال الشارع الذى ساقه لجاز الأمر، ولكن أن ينطلق الأمين العام للثقافة من خلال هذا المثال ليدلل على «غلبة الجهل» و«العنف» و«التطرف» وكل أنواع «الظلمات» التى ذكرها؛ ليصم من خلاله طلاب الأزهر وأساتذته و«نظام التعليم المتخلف فى الأزهر»! فهذا نوع من التبسيط المخل.

لقد كان كاتب هذه السطور طالباً فى هذه الجامعة العريقة وأشرف بأئني عضو من أعضاء هيئة التدريس بها، وهذا يعنى أتنى تفاعلت مع الآلاف من طلابها طالباً وأستاذاً، وأقول بكل الموضوعية، إنه وإن كانت هناك سلبيات فى نظام التعليم الأزهرى، وهى سلبيات معروفة تشترك فيها كافة جامعات الوطن العربى والعالم الإسلامى بنسبة أو بأخرى، أما طلاب الأزهر فأنا أشهد وشهادتى أمام الله، وبعد أن درست للآلاف منهم ووضعتهم موضع المقارنة مع آلاف غيرهم فمت بالتدريس لهم فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وفى جامعتى جورجتاون وتكساس وعدد من جامعات مصر والوطن العربى الأخرى التى درست بها إلى يومنا هذا، وأقول على هذا الأساس إنهم طلاب لم أر منهم سوى الأدب والالتزام والرغبة فى العلم والتحصيل والعقلانية المبنية على قيم الدين الإسلامى الحنيف، ومنهم أمثلة التميز المشرف وأثبتت وجودها فى الجامعة وخارجها - وكلما أعطيتهم أعطوك - وليست هذه شهادتى فقط وإنما

هى مضمون شهادات عدد كبير من الأساتذة الضيوف الأجانب الذين يأتون من مختلف دول العالم إلى أزهر مصر الشريف ويتفاعلون مع طلابه وأساتذته، ومنهم من قام بالتدريس بصفة منتظمة فى أقسام كلية اللغات والترجمة طبقاً لبرامج تبادل الأساتذة، ولعل آخر مثل هذه الشهادات المشرفة التى تنصف طلاب الأزهر والذين أساء لهم جميعاً الأمين العام للثقافة، ما جاء من خلال ما ذكرته الكاتبة الفلسطينية المقدسية **سهاد حسيني قليبو**، والذى ورد فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٥/٥/٢٠٠٠ تحت عنوان «الأزهر .. القدس» حيث قالت:

«إن من يلتقى بشباب الأزهر يعرف أن القدس عائدة لا محالة.. إن هذا الشباب يمتلك إيماناً بالحق والعدالة.. إن شباب الأزهر جعلنى أحس بالأمان.. جعلنى أحس أن القدس مازالت قضية جميع الأجيال» إلى آخر ما فعلته الكاتبة عن تفاعلات الملتقى الذى شاركت فيه مؤخراً بكلية اللغات بجامعة الأزهر..

... إن طلاب الأزهر - سواء أزهر اليوم أو أزهر محمد عبده - بالرغم من المشاكل الكبيرة والعقبات العديدة والمعروفة التى تهدد كل واقعا العربى؛ يمثلون جزءاً كبيراً من ضمير هذه الأمة الحى والمعبر عن التمسك بالقيم النبيلة لهذه الأمة، وبالرغم من أننا لا نقر، بل وندين أسلوب التظاهر وكل ما قد يؤدى إلى العنف بأشكاله المختلفة، إلا أنه أسلوب سلمى موجود فى كل مكان فى العالم، وهو من تراث المجتمع المدنى وحقوق الإنسان عندما تحتقن قنوات الحوار الإيجابى ويشعر الناس بدرجة غير محتملة من فرض الرأى والقيم عليهم، خاصة إذا كان الرأى هزىلاً والقيم دخيلة ولا يمكن قبولها. وإذا كان هناك من تفسير حقيقى لمظاهرات الأزهر غير ما ورد من تلفيق للأحداث، وتداعيات وتفاصيل أدت إلى عنف بين الشرطة والطلاب وليس لنا أن نخوض فيها هنا، إلا أن هذه المظاهرات لم تكن نتيجة «للجهل والظلماء»، والسذاجة الفكرية لطلاب الأزهر، كما ذهب إلى ذلك الدكتور **عصفور**، وهى أيضاً لم تكن لمجرد بيان ورع على الطلاب - كما استرسل سيادته فى تحليل مضمونه الركيك - ولم يكن بيان الدكتور **أحمد عمر هاشم** فى لجنة الشئون الدينية بمجلس الشعب هو المفجر للمظاهرات كما أفاد المقال. فالبيان جاء بعد اندلاع المظاهرات فى محاولة لتهدة الطلاب، بل والشارع المصرى كله الذى كان ينتظر الحكمة من الكبار ونزع الفتيل بالاعتراف بالتجاوزات التى حدثت من كافة أطراف التفاعل وعدم تحدى المشاعر والتخبط فى إدارة الموقف.

هناك جيلاً جديداً فى الأزهر الشريف يقدر بمئات الأساتذة الذين حصلوا على أعلى الشهادات والخبرات الدولية من أرقى جامعات العالم وفى أحدث فروع العلم المختلفة بكلليات الجامعة من طب، ولغويات، وهندسة، وأداب، وعلوم، وزراعة،

واجتماع، وعلم نفس، وعادوا بعد ابتعائهم للخارج من قبل الأزهر الشريف والدولة المصرية لينشروا في هدوء دون صخب ما تعلموه من أحدث العلوم، وما اكتسبوه من أرقى الخبرات العلمية وخبرات الاحتكاك بالثقافات الأخرى في هذا العالم، وذلك في إطار من تكامل العلم والدين، وفي إطار المقاصد الجليلة للشريعة الإسلامية في النماء وال عمران والتعايش الإيجابي مع الآخرين.

إننى أقترح على الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة اقتراحاً أراه جديراً بالاعتبار، وهو أن يقوم المجلس الأعلى للثقافة في مصر بحصر هذه الكفاءات في جامعة الأزهر (فقط).

وهي كفاءات ولاشك أنها ستساعد وزارة الثقافة في النهوض بالواقع الثقافى فى مصر، وستعلاً فراغاً كبيراً جداً موجوداً على الساحة وأتمنى أن يحظى هذا الاقتراح بالاهتمام لأنه سيكون فى صالح الجميع وفى صالح وزارة الثقافة على وجه الخصوص، لأنه سيحقق لها ما يلى:

(أ) الإفادة العلمية: إن وزارة الثقافة تدرك حقاً أن مفهوم الثقافة أشمل من أن يقتصر على بعض الأوجه التى ركزت عليها أكثر من الماضى، وإن الأزهر خاصة يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الثقافة فى مصر، بل إن ما يمثله ليشمل أساساً حيويها من أسس الثقافة العربية الإسلامية، فهو يسمى: «بأزهر مصر» ومصر تسمى «ببلد الأزهر» وإن مفهوم الإبداع يتسع لكافة المجالات العديدة التى أشرت إليها من خلال تخصصات هذه الكفاءات المتعددة، وبما يدعم كل القيم العلمية والدينية وثوابت الأمة معا..

(ب) إنهاء وضع سلبى لا يمكن أن يستمر فى مصر، ويتمثل فى مقولات مثل: «الأزهر فى مواجهة المؤسسة الثقافية أو العكس» ومجرة المفاهيم المفتعلة المماثلة، والتى تدل على حالات من الاشتباكات الخاطئة التى لا ينبغي لها أن تستمر.

(ج) أن يتم عبور الجزر المنعزلة فى الواقع الثقافى، وتكون تلك الأزمة - مثل أى أزمة يحسن إدارة توابعها - الفرصة المواتية لدراسة ما يمكن تسميته «بأدب الأزمات».

- إن الأزمة التى خلفتها التفاعلات حول «وليمة لأعشاب البحر» لابد من دراستها ومعالجتها على مستويين: المستوى الأول، وهو دراسة التفاعلات الثقافية وأنماطها التى تساعد على الحوار واحتواء الأزمات، وكذلك تلك الأنماط التى من شأنها أن تتفاقم معها أزمنا ولا تنتهى.

وهنا نحتاج إلى مناقشة العديد من الأسئلة المحورية بشئ من الموضوعية والهدوء

النفسى والعلمى، مثل : ماذا عن تمرير الرواى للمفاهيم التى قد تتعلق بالعقائد من خلال شخصيات العمل الأدبى؟ وماذا عن مستوى موضوعية القارئ العادى أو المتخصص عندما يتم تناول العقائد؟ وما مدى المسؤولية الأدبية، بل والقانونية فى إطار التعرض للعقائد بصورة أو بأخرى فى العمل الأدبى؟ وإلى أى مدى لم تقبل بعض الدوائر العلمية المتخصصة مسألة عدم مسؤولية الرواى أو الأديب عما يرد على لسان شخصياته؟ وإلى أى مدى لم يحسم هذا الأمر أو نقيضه علمياً؟ لقد استرسل فى مثل هذه الأسئلة وفى محاولة الإجابة العلمية عنها الناقد الأستاذ Wayne Booth فى كتابه الكلاسيكى الهام بعنوان «بلاغة الفن القصصى» فى الفصل الخاص منه، والذى جاء تحت عنوان «العواطف والمعتقدات وموضوعية القارئ»، وتناول كاتب السطور مثل هذه الأسئلة من زوايا يعينها منذ أكثر من عشر سنوات فى مناقشة للأزمة التى تمخضت عن التفاعلات حول رواية «الآيات الشيطانية» وتفاعلات كاتبها سلمان رشدى فى الإعلام الغربى فى عام ١٩٨٩، وكان ذلك فى مقال بالإنجليزية لجريدة Hoya بجامعة جورجتاون فى ١٩٨٩/٢/٢٨ وأودع نسخة منه لمجلة سطور.

أما المستوى الثانى: فيتمثل فى الدراسة التحليلية من منظور إدارة الأزمات والإدارة بالأزمات للتحركات التفاعلية (Interactive Moves) على مستوى المباشرة الحزبية بين الحكومة والمعارضة، فلقد تضمن «ملف الوليمة» مادة جيدة للدراسة والتأمل فى هذا الصدد. ولقد تناول الدكتور محمد السيد سعيد جزئية تتعلق برفض فكرة الحزب الدينى، وعن ضبط معادلات الدين والسياسة فى الحياة السياسية (الحياة (٢٠٠٠/٥/١)، ولكن لا تزال هناك طروحات وأسئلة عديدة فى هذا الصدد تستحق دراسة ومناقشات قد يكون لها سياق آخر، ولكن من الضروري أن تدخل مثل هذه المناقشات فى الاعتبار المناظير الحديثة والخصوصية الثقافية لمناقشة موضوع الدين والسياسة فى عصر العولمة.

- لقد غاب عن المناقشات بعد مهم، وهو وجود جيل جديد من أزمات العولمة الثقافية، حيث محاولات تفتيت المنطقة سياسياً وثقافياً واقتصادياً. ولكن السؤال المهم هنا هو هل ننتبه لهذا البعد بعيداً عن حالات التكفير والشتائم من قبل البعض، وكذلك من ناحية أخرى بعيداً عن حالات الاستدعاء العشوائى المنفلت والذى تجسد فى تفاعلات فريق الإبداع بلا حدود؟ بحيث كان رأى الأزهر أو أى ناقد للرواية يمثل «محاصرة الثقافة» و«بداية لمصادرة الأدب العربى كله» و«منع الأفلام والموسيقى فى مرحلة تالية» ثم «الوصول إلى حالة أفغانستان فى النهاية» ومن ثم كان لابد من استدعاء كل أسلحة القتال لوقف أصحاب الرأى المعارض للرواية. وفى

هذا تجاوز كبير للأمور وخلط مجاف لحقيقة السياق المحدد للتفاعل، فهناك أعمال موجودة لم ولن يقترب منها أحد، حتى وإن كان بها بعض التجاوزات غير سب العقائد. وهناك مجالات للإبداع والمبدعين مفتوحة للغاية، ولا يمكن أو ينبغي لأحد أن يقترب منها، ثم إن حماية المجتمع من شرور الفتن من خلال دور الأزهر المحدود فى نهاية الأمر مطلوبة مع جهود المثقفين والمبدعين والتنويريين المسؤولين لضبط إيقاع أخذ فى الانفلات والغلو وشيوع الرذيلة وازدراء الأديان، فهناك حالات واضحة أدانها القضاء المصرى، وأخرى يحقق فيها النائب العام المستشار ماهر عبد الواحد، كما فى حالة المدعو صلاح الدين محسن العضو باتحاد الكتاب، والذي اعترف بازدراء الأديان ويعد أن نشر أربعة مؤلفات بعنوان «مذكرات مسلم - الصعود للسماء عباطى - ارتعاشات تنويرية» (راجع تحقيقاً جيداً عن هذا الموضوع نشرته الأهرام فى العدد ١٦٤ - ٢٠٠٠/٥/١٣). فهذا المناخ المستجد بمجمله على مصر، سواء على مستوى «التكفيريين» أو «التنويريين» ليس ضد جوهر الدين السمح فحسب، بل ضد كيان المجتمع المدنى المتعايش فى وئام مع بعضه البعض بكل طوائفه وتياراته.

الخلاصة: إن تفسخ المجتمع وانحيار قيمه لن يكون فى صالح أحد بكل تأكيد، وفى هذا الإطار ينبغي أن ينظر الجميع للصورة بمجملها والبحث عن مخاوف كل طرف، كما نؤكد على ضرورة الوصول إلى صيغة مشتركة بين مؤسسة الثقافة والأزهر على وجه الخصوص، يتم من خلالها عبور الجزر المنعزلة والخطاب المنغلق على ذاته، والذي أدى إلى حدوث خلط غير مسبوق من قبل الأطراف المتفاعلة فى إطار هذه الأزمة، والوصول إلى صيغة مشتركة وأجندة عمل مستقبلية تتجنب أخطاء وأزمات الماضى، وأهمية منع توابع هذا الانقسام الحادث اليوم من التأثير سلباً على مستقبلية الثقافة فى مصر.. وهذا يتطلب عدة آليات للعمل المشترك يحتاج تفصيلها إلى سياق آخر..

ولعلنى أنهى هذه الدراسة بجملة أزهرية تعلمناها من شيوخنا الأجلاء، عند الخوض فى أى موضوع، خاصة إذا كان الأمر يحتمل أكثر من وجهة نظر وهى: «هذا والله أعلم، وهو وحده المستعان».

٧ - التصدي لجذور الفتنة وآليات استباق الأزمات

إن الاحداث المؤسفة للغاية التى شهدتها مدينة الإسكندرية مؤخرًا لا ينبغي أن تستدعى فقط الأسف والحزن أو مجرد الشجب وبيانات الإدانة أو التهذؤة، بل ينبغي أن تستدعى لدينا اليقظة التامة والتحريك السريع الذى تتطلبه اللحظة الراهنة، والسعى فورًا لتدشين آلية مجتمعية وعلمية للتصدى لكل أزمات المجتمع الملحة، وعلى رأس ذلك التصدى لتلك الأزمات التى تكون ناتجة لتفاعلات «الجهل والتطرف والبلطجة والغباء والتسيب» فهناك عدد من الأزمات التى شهدتها مساحات تفاعلاتنا لم تخل من هذه المكونات، ولكن الأخطر اليوم أن تدخل هذه المنظومة التى رأيناها فى تفاعلات رياضية وسياسية واجتماعية إلى أكثر المناطق حساسية للأمن القومى كما حدث مؤخرًا فى الإسكندرية.

لقد تناولت على مدى الأسابيع السابقة موضوع «المنظور التفاوضى لتفعيل القاعدة العلمية» وإننى فى هذا المقال أقطع هذه السلسلة من المقالات التى لم أنته منها بعد حتى أصل إلى أجندة مطالبة بتفعيل القاعدة العلمية كما ينبغي أن تكون وبما يليق بمصرنا الغالية.. لأن ما نقصده «بتفعيل القاعدة العلمية» بالمستوى المطلوب، يتمثل فى أن يكون لدينا القدرة السريعة والخاطفة والمؤثرة على منع واستباق الأزمات، خاصة تلك التى تمس أمننا القومى، لأن عدم التفعيل الواجب للقاعدة العلمية المرتبطة بصناعة القرارات وتفعيلها على المستويات السياسية والمجتمعية، يؤدى إلى هيمنة سيناريو مستمر وخائب يتجسد فى الوصول دائماً إلى مرحلة إدارة الأزمات وهذا المصطلح أعتبره من المصطلحات الشائعة «المتخلفة» فى سياقات بعينها؛ لأن المصطلح الأصح بكثير قولاً وفعلًا هو «استباق ومنع الأزمات» لأن الوصول إلى مرحلة «إدارة أزمة» معناها : المخاطرة الكبيرة بالنجاح أو الفشل فى إدارتها.. هذا فى أحسن الأحوال، لأن هناك نوعية من الأزمات، كالأزمات الطائفية مثلاً معنى الوصول إلى مرحلة إدارتها يعنى الترهل والتكاسل واللاعلمية واللامنهجية فى التعامل مع أزمات ليس لها إلا أن تمنع وتستبق حتى لا تحدث من الأصل.. ويضاف إلى الطين الكثير من البلبل المؤذى إذا كان مستوى إدارة الأزمة على النحو الذى نراه اليوم، سواء فيما يتعلق بأحداث الإسكندرية أو ما يشابهها، حيث الإدارة المنعزلة تماماً عن «قاعدة علمية بالآليات المطلوبة، كما يحدث فى دول العالم المتقدم»، فلا منهجية، بل عشوائية تستمر حتى فيما تبقى من تفاعلات حتى وإن بدأ الجميع فى الإخلاص لغلق الثغرات والمنافذ لمنع احتدام الأزمة وعودة الهدوء، فالمسرحية الهزلية فى الاداء تتسم بمايلى :

١ - بيانات تهدئة شكلية لاتتعامل مع أى عمق حقيقى للأزمة لانخرج عن عقلية المناشدة فقط.

٢ - هروب مسئولين وجهات من الساحة كان عليهم أن يتواجدوا ويتحركوا بفاعلية أكبر بكثير مما هو قائم.. وكأنهم ذهبوا إلى كهوف مقولات سيناريو النعامة «الذى عهدناه فى إدارة أزمات عديدة».

٣ - ترك ساحة التفاعلات الأكثر تأثيراً لعناصر وشخصيات «الإعلام الاصغر» أو أقول «للعناصر» الإعلام الأسود، ممن يتسمون بمستوى سطحي وقاصر إلى أبعد الحدود، حيث يستمرون فى تأدية باقى المهمة بجهالة منقطعة النظير تزيد من تفاقم الأزمات.

٤ - فقدان فكر «الخطوط الحمراء» الحقيقية التى ينبغى أن يتم التوافق عليها مجتمعياً لأمن المجتمع ولأمننا القومى، وعلى رأس ذلك ما يتعلق بالوحدة الوطنية.. لأن هناك فرقاً كبيراً بين الديمقراطية والسعى لخراب الأوطان.. فهناك فرق بين التعبير عن رأى بشكل علمى ومحترم وبين الترهل والتسيب الخطر.

٥ - عدم وجود قنوات تفاعلية مستمرة للتفاعل ورصد ومتابعة وإحباط لسيناريوهات الفتنة فى مراحلها الأولية بالتدخل العلمى والإخلاص الوطنى الحاسم فى إطار هذه القنوات.

والمطلوب اليوم - الآن الآن وليس غدا - يتمثل فى.

١ - تدشين آلية من المثقفين ورجال المجتمع من أصحاب العقول المنصفة أو من أحد المجالس المتخصصة العديدة فى الدولة، وليكن مجلس حقوق الإنسان، أو من خلال لجنة من المثقفين ورجال المجتمع يرتبط عملها بالمجلس أو أى صيغة أخرى مشابهة.. لتكون بمثابة آلية ترتبط بصنع القرار لإدارة توابع هذه الأزمة للتأكد من عدم تكرارها، واستباق ومنع كل ما يؤدى إلى المساس بأمننا القومى.

٢ - إيجاد صيغة تفاهات مجتمعية حول موضوع «الخطوط الحمراء» فى الإعلام وفى واقع التفاعلات المختلفة، بأسلوب التوافق المجتمعى وليس فقط من خلال القوانين والإجراءات الأمنية.. وهذا يحتاج إلى جهود إعلامية وتعليمية مطلوبة وحيوية. فموضوع «الخطوط الحمراء» هذا يوجد فى أكثر الديمقراطيات توسعاً وتقدماً.

٣ - النظر إلى الأزمة من خلال نظرة تكاملية وبمزممة متكاملة ومتسقة من الإجراءات بعيداً عن الإختزال والإلحاق الخاطى والتفسير التجزئى فقط

لعناصر الازمات.. والإهتمام بمرحلة ما بعد هدوء الازمة.. فلانتظر حتى تتكرر
المأساة.

٤ - شغل مساحات التفاوض المهجورة من تواجدنا الفعال على ساحة التفاعلات
الدولية، بما يمكننا من تدشين «منصات فكرية» متميزة يكون لها القدرة على
المبادرات الإيجابية، لإحتواء وإفساد سيناريوهات التدخل الخارجى من ناحية
وتقليل حجم الضرر من استفادة عناصر العداء لمزيد من الاستهداف لمصر
وللمنطقة على حساب أجندتنا الوطنية وسيادتنا على أراضينا ومقدراتنا..

(الكاتب-الأخبار ٢٧/١٠/٢٠٠٥)

٨ - بين «التسويق السياسي» و«أجندة للتفاوض الجماعي»

تشهد مصر حراكاً سياسياً غير مسبوق، وهذا الحراك على مستوى جميع التيارات الفاعلة بالمجتمع، وهو نتيجة لجهود جميع التيارات على اختلاف توجهاتها في مصر، وينبع من الإحساس العام لدى الجميع بأهمية الانتقال من نظام حكم جرى في إطار دستوري عام ٧١ وفي إطار أعراف أخرى عديدة، إلى نظام حكم جديد يتعامل مع تغيرات هيكلية يمر بها المجتمع وطبيعة العصر وظروفه التي نحتاج إلى التواءم والتفاعل معها بإيجابية وبأداء أفضل.

لقد تغيرت خريطة الواقع السياسي في مصر بشكل ملحوظ، فلقد عكس الخطاب الرئاسي في مصر لأول مرة أهمية إصلاح الدستور وتحديد الصلاحيات المطلقة لرئيس الجمهورية، وتحدث عن إلغاء قانون الطوارئ.. وعن مرشحين للرئاسة.. وكلها أمور لم تكن واردة في نفس الخطاب السياسي الرئاسي منذ عدة أشهر فقط. ولاشك أن هذا الخطاب قد استجاب لأجندة المصريين كلهم حكومة ومعارضة وشعباً.

من هنا يمكننا أن نصف الوضع الراهن بأنه قد يكون بمثابة الفرصة الذهبية لمصر لكي تحدث نقلة نوعية في أسلوب الحكم وفي تحقيق مستوى الديمقراطية التي تليق بعراقه شعب مصر وحضارته.. ولكن لا بد أن تسعى إلى ترشيد التفاعلات بعيداً عن الاحتقانات والانفعالات والتلاسن عن طريق فتح صفحة جديدة لواقع تفاعلات جديدة بعيداً عن أساليب بآلية تكرست في تفاعلات العقل العربي عموماً من حيث لغة الإقصاء المتعادل والتسلط في الحوار، أو شيوع خطابات الطمأنينة الوهمية «وليس في الإمكان أحسن مما كان» وخطابات الجرعات الديمقراطية المراوغة والتزلف والالتفاف.. فنحن بحاجة إلى خطاب يعنى بتكريس ثقافة التفاوض النضالي الجماعي.

والتفاوض هو القدرة على إدارة الأجندات المختلفة أو المتصارعة، وأصفة في سياقنا هنا بأهمية أن يكون «نضالياً جماعياً» أى لا يفهم منه أنه تفاوض المصالح الذاتية والشخصانية الضيقة التي كادت أن تدمر عمليات بناء الثقة في المجتمع.

والمقصود أن ندشن ثقافة التفاوض الإيجابي الجماعي النضالي.. وأقصد بالنضالي هنا ألا يكون متراخياً ووقتياً، بل يكون مصحوباً بجهود تراكمية مستمرة.. هذا التفاوض لا بد له أن يصل إلى حلول ملموسة ومتراكمة في قضايا التغلب على

مشاكل البطالة، ومشاكل صحة المواطنين، وتفعيل دور الجامعات والبحث العلمى بما يحقق التفعيل الأقصى للطاقات والمصادر البشرية، وغير البشرية المتاحة فى الوطن، لنضيف إلى قوته على جميع الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية... من خلال الاعتماد على نظم وليس أفراد .. أى أنه قد أصبح من المتعين علينا أن نرفع شعار «أهل الخير» لأنهم فى النهاية هم أهل الثقة الحقيقية، وأن نظوى صفحات أهل الثقة أولاً وأخيراً.

هذا ما أقصد بأجندة التفاوض الجماعى النضالى.. وهو الأمر الذى لا يتطابق مع مفهوم التسويق السياسى، الذى بدأ فى تفاعلاتنا السياسية من مفردات العولة التى تحتاج إلى الوقوف أمامها.

فمفهوم «التسويق السياسى» أو Political Marketing من المصطلحات التى ضربت على غرار «تسويق البضائع». وهذا المصطلح بدأ يشيع فى التفاعلات السياسية فى الحملات الانتخابية فى الخارج، وخاصة فى الولايات المتحدة.

وهناك مراكز ومعاهد متخصصة يتم الاستعانة بها لترشد المرشحين فى حملاتهم الانتخابية، من حيث كيفية استخدامهم لأدوات الدعاية الانتخابية كالإعلانات السياسية، واستخدام اللغة التعبوية لهذا المرشح أو ذاك، وكيفية التعامل مع كسب الأصوات، وخلق جماعات التبنى للأفكار Advocacy، وكيفية توظيف الإعلام بشكل مؤثر وفاعل لتدعيم حملة مرشح وكشف مشاكل ونقاط ضغط الآخرين.. وأعتقد أن هذا بالطبع ومن الناحية العملية أمر وارد، وأن يتم فى خضم العملية الانتخابية الديمقراطية، ولا بأس بذلك طالما أنه لم تستخدم أساليب غير أخلاقية أو غير شرعية أو تشويهية متعمدة للآخرين.

ولكننى لا أعتقد أن مصر بحاجة إلى مفهوم «التسويق السياسى» بالمعنى البراجماتية المحدودة والمذكورة أعلاه.. وأعتقد أن مصر بحاجة إلى تدشين ثقافة التفاوض الإيجابى والحوار الأخلاقى المنطلق من قيمنا العريقة، لتركز على مشاكل تواصلية صعبة وتحتاج إلى تدريب وممارسة طويلة على مستوى كل التيارات الفاعلة تبدأ من التعليم والإعلام بعيداً عن أساليب التسلط المعهودة والقابعة فى عمق التعليم والإعلام العربى.. لعهود طويلة.

فالتحديات أمام الجميع، وكمهمة أولى فى هذه الفترة هو السعى إلى ضبط وتفعيل المعادلات التالية لصالح كل من يعيش على أرض هذا الوطن الغالى والمتمثلة فى:

- ١- بما أن هناك توافقاً بين الجميع على إصلاح الدستور، فلا بد من إيجاد آلية تواصلية تراعى كل الآراء لجميع التيارات السياسية والمجتمعية، دون أن يلتف حول هذا الأمر من أساءوا من قبل ممن أسمتهم الصحافة القومية والمعارضة بترزية القوانين أو ترزية الدساتير.
- ٢- بما أن هنا إشارات واضحة لإلغاء قانون الطوارئ، وكيف يتم ذلك، بحيث لا يأتي قانون لمحاربة الإرهاب يتعرض للحريات العامة فيكون الأفضل وليس الأسوأ.
- ٣- بما أن الاستقرار والتراكم هو المطلوب، فلا بد من تبني معادلات النمو الاقتصادي، بعيداً عن أساليب التناحر والعصيان المدني والاحتقانات التي تضر ولا تتعامل مع عمق المشاكل المركبة التي تحتاج إلى كل الجهود المخلصة.
- ٤- بما أن المطلوب الآن هو التوافق وتفعيل أرضية مشتركة بين جميع التيارات الفاعلة ليكون للجميع مساهمتهم التي تحقق أجندة المصلحة العليا للوطن، فإن علينا أن ندرك أن عملية صياغة الأرضيات المشتركة هي مهمة ليست سهلة على الإطلاق وتحتاج إلى حالة نفسية إيجابية غير محتقنة، وإلى تدريب تقني عال... وهو الأمر الذي سنتناوله تفصيلاً في سياق قادم بإذن الله.. والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ١٨/٨/٢٠٠٥)

٩ - «الأمريكان» ومانديلا والإخوان

نحن بحاجة إلى حوار موسع لفهم ملفات تفاعلية يمكننا من فهم الظواهر السياسية التي تحتاج المشهد السياسي الراهن.

ومن مستلزمات هذا الفهم العلمي والموضوعي أن نتعرف على الخلفيات الثقافية الرئيسية للمتفاعلين ونظام قيمهم الذي يحرك مسار الحوارات.

والدافع للكتابة في هذا الموضوع هو مقابلة أجراها معي أحد الإخوة الإعلاميين وكان محورها عن إبداء الرأي فيما أسماه «بحوار جماعة الإخوان المحظورة مع الأمريكيين». ومجموعة الأسئلة المندرجة في هذا الإطار، هي نفس الأسئلة التي يتصدى لها عدد كبير من الكتاب خلال المقالات والتغطيات والمقالات الإعلامية والصحفية هذه الأيام.

إن وجه الاستغراب لدى البعض يتمثل في الافتراض القائل عندهم بأن هناك نوعاً من الخصومة الأساسية بين كل من الإخوان المسلمين المحظورة والأمريكيين على أساس أن الإخوان المسلمين ينظرون بعين الريبة والخوف، وفكرة الصراع الحتمي بين أمريكا وهذه الجماعة لأسباب عديدة تكاد تكون معروفة للجميع، خاصة أن أمريكا وعلاقتها «بالإسلام» تشهد مرحلة من العداء السافر - رغم كل التصريحات الدبلوماسية الرسمية، حيث يرى اليمين المتطرف الحاكم في أمريكا أنه «العدو الأخضر» و«الغواصات الإسلامية» وإلى ما ذلك من مصطلحات «صدام الحضارات». هذا اليمين المتطرف يتشبه بمعادلة أصبحت معروفة، وهي «نهاية التاريخ» بمعنى أن الوسيلة الوحيدة أمام العالم العربي الإسلامي أن يكون ليبراليا علمانيا كأساس مطلوب من وجهة نظرهم للتقدم، وأن يكون متقبلاً لكل القيم الأمريكية الديمقراطية المختومة بالنسر الأمريكي .. إلى آخره.. هذا من ناحية، وإما فالصدام الحضاري في انتظارهم!!.. من هنا، ومن هذا المنظور الأمريكي يرى البعض أن رفع الإخوان لشعار «الإسلام هو الحل» يضع العقدة في المنشار وينافي التوجه الأمريكي في إدارة معادلة الصراع في الوقت الراهن.. وبالتالي يستغرب البعض من وجود اتصالات وعلاقات قد يرونها «عجيبة» أو «غير منطقية».. وهنا لابد أن نفهم نقطة محورية في الثقافة السياسية الأمريكية عبر تاريخها الطويل تكاد تقتصر إلى حد بعيد على طبيعة الأمريكيين في هذا العالم، وهذه النقطة تتمثل في وجود نمط متسق للتحويل الراديكالي «١٨٠» درجة من اتجاه إلى عكسه ونقيضه، فمن الناحية السياسية يشهد التاريخ أن أمريكا التي اعتبرت وأكدت على أن نيلسون مانديلا - الذي يعتبر اليوم بمثابة قديس للحرية والتحرر والبطولة في أمريكا - كان هو نفسه

وبشحمه ولحمه منذ عقدين من الزمان من «أعتى الإرهابيين». حيث وصفته الحكومة الأمريكية في ذلك الوقت بأنه «شيوعي إرهابي»!! كذلك ظهر الرئيس عرفات كشريك للسلام لا غنى عنه - في المنظور الأمريكي - حين استقبلته الإدارة الأمريكية في حديقة البيت الأبيض ليوقع مع رابين على اتفاق للسلام، وبعدها بعدة سنوات أصبح عرفات - طبقاً لنفس المنظور الأمريكي - هو المشكلة والعقبة والكارثة.. إلى آخر ذلك! ومن ناحية التفاعل مع ملفات ذات بعد ديني أساساً - لا ينكر المحلل الموضوعي وجود شعور تاريخي سابق في الولايات المتحدة معاد للكاتوليك، خاصة في فترة حرب أمريكا للاستقلال ضد بريطانيا، حيث إن نسبة الكاثوليك ١٪ في أمريكا، والأغلبية من البروتستانت خاصة - لقد كان الكاثوليك في ذلك الوقت ولتاريخ قريب بمثابة «الطابور الخامس» و«العدو الكاثوليكي».. وكان أى كاثوليكي هو شخص غير مرغوب فيه داخلياً وخارجياً، أى حسب التعبير الدبلوماسي الإنجليزي المعروف «Persona Non Grata».. وعكس كل هذا التراث الذى ترسخ لفترة طويلة فى العقل السياسى الثقافى الأمريكى لم يدم حيث تغير الأمر برمته ليصبح جون كيندى أول رئيس كاثوليكي لأمريكا.. وتغيرت مع هذا الحدث الكبير النظرة لكل الكاثوليك، وأصبحوا اليوم - رغم مشاكلهم - الأشخاص المرغوب فيهم فى المشهد الثقافى الأمريكى.

إذا تعرفنا بدقة على هذه السمة الأساسية التى تتسم بها أمريكا على صعيد الثقافة السياسية الديناميكية المتغيرة، وأضفنا إليها الحسابات السياسية الميكافيلية البحتة التى لا تفهم إلا لغة المصالح ولغة القوة، لانصرفنا إلى عدم تضيق الوقت فى التأمل المنهدش والمتعجب لأمريكا ولتصرفاتها!! إن الاهتمام كل الاهتمام ينبغى أن يتركز على زاوية أخرى، وهى بناء القدرة الفاعلة ورفع كفاءة التحرك الإيجابى والاستباقى على أصعدة التفاعل الإيجابى المختلفة مع العالم كله، وأرى هنا بإيجاز أن نسعى ومن خلال هذا المنطلق إلى إنضاج التفاعلات الداخلية بين جميع عناصر الأمة وكل التيارات التى تموج بها بدلاً من الإقصاء أو الاندهاش والجمود وضيق الأفق الذى يمارس فى تفاعلاتنا.

وذلك لأنه لا سبيل إلا الوحدة الوطنية بمعناها الشامل، لتكون مصر قوية وقادرة على التحرك الذى يحمى مصالحها وينقلها إلى آفاق التقدم التى تستحقها، بدلاً من سيناريوهات الإقصاء المتبادل والتشرذم والاستقواء بالخارج من قبل هذا أو ذاك. وفى هذا الإطار لا بد من إعادة الحد الأدنى من الثقة المتبادلة، وتبنى الموقف الإيجابى الساعى دائماً إلى تلمس الأرضية المشتركة.. فصناعتها تحتاج إلى جهود كبيرة، فكثير من التفاعلات التى اعتبرها غير موفقة وغير مطلوبة على غرار النداءات بعد

صفحات من التحقيقات التى تقول مثلاً «... ويا أيها المثقفون المصريون.. اتخذوا فى مواجهة الإخوان..» أو تلك التى تقرّر فقط أن مشاكل الإخوان، كذا وكذا وكذا ومشاكل الحكومة كذا وكذا، ومثل نداء مواجهة الإخوان هناك من ينادى بالعصيان المدنى والتظاهر إلى أن يسقط الحكومة. والصورتان من صور الاستقطاب والإقصاء المتبادل الذى يكرس فى النهاية البكاء على اللبن المسكوب وترسيخ جمود الجركة والفعل، والذى لن يخدم إلا أعداء هذا الوطن وكل المتربصين به، ولعلّى هنا أن أشير إلى أمتة الكتابات الراشدة والعقلانية فى هذا الموضوع، ومنها مقالة للزميلة والأستاذة الفاضلة د. أمانى قنديل بعنوان «لعبة الكراسى الموسيقية بين النقابات المهنية والبرلمان» (الأهرام ٢٠٠٥/١٢/٤) وكذلك مقال أ. فاروق جويده بعنوان «الخطايا العشرة» (الأهرام ٢٠٠٥/١٢/٢) فمثل هذه الكتابات وبإيجاز شديد تتمتع بالموضوعية والعلمية والسعى لكل تحريك إيجابى وفاعل لتلمس إمكانيات وأساليب صياغة الأرضيات المشتركة والحرص على عدم إهدار الفرص الثمينة التى تذهب من جراء أساليب التحفيز والتجمد والإنشاء والإقصاء المتبادل الذى يمارسه الكثيرون مع الأسف الشديد.. إن مصر فى حاجة إلى بناء الجسور المتينة بين كل عناصر التيارات الفاعلة.. بأسلوب إيجابى لصالح الجميع، والأمر يحتاج إلى رؤية صارمة فى هذا الاتجاه يدعمها العلم والموضوعية والسعى الدقيق والرغبة الائتمانية للعبور بهذا الوطن نحو الآفاق التى يستحقها منا جميعاً، وأن نسأل الله العلى القديم من قبل ومن بعد أن يوفقنا إلى ذلك فهو نعم المولى ونعم النصير.. وهو سبحانه وتعالى المستعان.

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/١/٢٦)

١٠ - التفاوض الجماعي وحرية الرأي والتعبير

شهد واقعنا الثقافي مؤخرًا عددًا من الوقائع والملفات التفاعلية ذات العلاقة الوثيقة بموضوع حرية الرأي والتعبير، ومنذ ذلك، «ملف الطلبة آلاء» وملف التفاعلات حول «عمارة يعقوبيان» وأخيرًا وليس آخرًا «ملف» قانون الصحافة وحرية التعبير الجديد، وهو الملف الذي شهد حالة من الاستقطاب الحاد واحتجاج لصحف عديدة ومناقشات بمجلس الشعب وتميرير للقانون إلى زن تدخل الرئيس مبارك بعدم التصديق علب البنود التي اعترضت عليها جموع الصحفيين والمثقفين والمعنيين بحقوق حرية الرأي والتعبير .. كان تدخل الرئيس مطلوبًا في حالة الطلبة ولاء كما في حالة الصحفيين وقانون التعبير عن الرأي الجديد لوقف حالات من الاجحاف المقيت الذي يهدد مبدأ حرية الرأي والتعبير .. بعد أن كادت الأمور تصل إلى نهاية الطريق المسدود مما يجعل من لبعض بنود القانون «مقصلة» لحرية الرأي والتعبير في حالة القانون أو أ يدمر مستقبل فتاة في مقتبل العمر بسبب تعبيرها عن الرأي الذي يقال ويتردد ي وسائل الإعلام من المحيط إلى الخليج .. أين يوجد إذن الخلل في كل هه الملفات ولماذا تصل كان من المفترض ألا تصل إليها وتستدعي تدخل السيد رئيس الجمهورية ؟!.. إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال تجعلنا نتوقف أمام أوجه الإخفاق التي تنتاب عمليات التفاوض الجماعي COLLECTIVE NEGOTIATION وتصل بها ومن بداياتها إلى طريق مسدود وإلى اللاحل بل إلى التفاقم.. فلا يكون أمام الجميع إلا مناشدة السيد الرئيس بالتدخل لتيسير أمورنا بعيدًا عن التجمد والاصطدام الحتمي والتصعيد والوصول إلى حالة من الأزمات المتتالية التي كان يتعين علينا استباقها ومنعها من الحدوث في مراحلها الأولى .. ونظرة تحليله إلى الملفات التي أشارنا إليها تفيدنا بما يلي :

أولاً : بخصوص ملف «آلاء» .. لماذا صعد مدرس الإنشاء الأمر إلى سلطة الأعلى.. وكان يمكنه إذا ما أحسن تدريبه وإعداده كمعلم أن يتعامل مع موضوع الإنشاء بالمنطلقات المعروفة في العملية التعليمية المنضبطة .. فكان يمكن أن يصحح الموضوع طبقًا لعناصر الحجج ومنها الإدعاء والتنفيذ وإقامة الليل ونغمة الطرح والالتزام بالاتساق في الموضوع .. هذه العناصر كان ينبغي أن تدرس وكان ينبغي أن يعد المعلم ليدرسها وتكون وسيلة لتقييم العناصر العلمية لأي حجة في أى سياق .. فكان عليه في حالة «آلاء» وطبقًا لما فهمناه عن مضمون «حجتها» ألا يخرج من خصم بعض الدرجات فيما يتعلق بمكونين فقط وهما «نغمة الطرح» التي ينبغي أن تكون منضبة وليست خارجة أو انفعالية Qualifier أو مكون الاتساق Coherence ..

ولكن هذا الملف قد دل على سوء إعداد المعلم من ناحية.. ثم عندما صعد هذا الملف إلى السلطة الأعلى من المعلم.. انتاب هذه السلطة الخوف والقلق فتم التصعيد حتى الوزير .. وهذه كارثة توضح خللاً كبيراً في العملية التعليمية «شفاها الله وعفاها من كل مكروه» !! .

أما الملف الثاني وهو «عمارة يعقوبيان» والتفاعلات الحادثة بسبب مطالبة بعض نواب مجلس الشعب بمصادرة الفيلم أو حذف بعض من مشاهد .. فهو أمر قد أحدث نوعاً من الاستقطاب الحاد لدرجة أن رأينا أداء نواب المجلس وفي مواجهتهم مخالفات وصفحات كاملة للإعلان جاءت تحت عنوان «بيان إلى عشاق الحرية» من أسرة الفيلم، هذا بالإضافة إلى كم كبير من المقالات الإطلاقيه والأحادية المنظور في كثير من الأحوال تضم من يعارض الفيلم بالصداية أو «العمل على تحجيب العقل المصرى إلى آخره من تعبيرات المعسكرات المتناحرة وإذا كنا بصدد محاولة رؤية الأثر الكلى لمثل هذه الأفعال من منظور تفاوضى عبر ثقافى فإننى أرى أن الصورة التى نقلها الفيلم فى نهاية المطاف هى صورة صارخة فى سوداويتها واقتربت كثيراً من الصور التى حاول كاتب مثل رافائيل باتى وكاتب آخر مثل جون لافين فى كتاب كل منهما والذى جاء بعنوان العقل العربى The arab Mind أن ينقلها ليقول للعالم كله.. هكذا هى صورتهم ومن المعروف لكل مطلع على أهم الأدبيات الغربية فى الغرب عن العرب أن كل من باتى ولافين من الكتاب المستغرقين فى نظرتهم الصهيونية.. السوداوية الجائرة.. كنت أتمنى أن تكون رؤية المبدع العربى أقل سوداوية وجلداً للذات وأكثر عدلاً أو أكثر توازناً وأكثر استنهاضاً للعوامل الإيجابية الكامنة فى عمق القيم العربية الإسلامية بدلاً من الاستغراق فى وصف المحيط والشاذ.. وهذا لا يعنى أبداً ألا نشير الواقع ولكن الواقع بكلياته وتوازناته ومع الأسف فإن الدوائر المعادية تحب أن تسمع وترى مصر ولك عربى كما وصفهم هذا العمل بأحادية وسوداوية عجيبة !! وكأنها المرادف «للإبداع» !! أما الملف الثالث هو عز قانون الصحافة فهو حالة ثالثة من الاستقطاب الحاد والمؤسف هو الآخر .. سواء كان من ناحية تسلط وشخصيته بعض البنود تركها كيف مسلط على حرية الرأى والتعبير أو من خلال الذين يريدون صحافة بلا مسئولية حقيقية، وربما يكون من المهم وبعد أن نسقط كل ما يؤدى إلى أى اعتداء أو إجحاف بحرية الرأى والتعبير أن نذكر هنا خلاصة المبادئ التى يقرها كل من يمارس ويعسى لتعميق دور الصحافة وحرية التعبير فى المجتمع وأن نزرع ذلك فى كل من التدريبات والتعليم والممارسة العملية، وهذه المبادئ الأساسية هي :

١ - أن الصدق هو الإلتزام الأول للصحفيين .

- ٢ - أن ولاء الصحافة الأول يكون للمواطنين .
- ٣ - أن تعمق مهنية التحقيق والتمحيص العلمى والموضوعى .
- ٤ - يجب أن تكون الصحافة رقيباً عادلاً ومستقلاً .
- ٥ - يجب أن تتوازن الأخبار فلا تكون الصحافة «الإعلام» مرادفاً للأخبار السيئة فقط

٦ - يجب أن تشكل الصحافة منبراً للنقد الموضوعى والمنهجى بعيداً عن التجريح والقذف أو السب وأن تكون منبراً لتقديم الحلول المتوازنة التى تخدم قضايا واستنهاض طاقات المجتمع ومراعاة المصالح العليا الحقيقية للأوطان أى أن تكون منبراً لعمليات التفاوض الجماعى الإيجابية بعيداً عن حالة الاستقطاب الحادة والأحادية والسوداوية والإطلاقية التى هى سمة اللاتفاوض الجماعى السلبى الذى لا يعنى سوى بإثبات وجهة نظر واحدة جامدة وقاصرة، نعبر عنها فى أدبيات التفاوض بمصطلح Positional Bargaining.. فى النهاية لعل أن يكون هناك ما نستفيد منه ونتعلمه جميعاً من سلبيات الملفات الثلاثة المستشار إليها لتجاوزها وعبرها نحو آفاق أفضل فى عالم لن يرحم المتسحلف والمحتقن والمتجمد والمتدهش والمحبط. والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان ..

(الكاتب-الأخبار ١٣/٧/٢٠٠٦)

ثانياً: فى موضوع الحوار والتفاوض مع الغرب

١١ - الحوار مع الغرب وتعليق على مقال «خافيير سولانا»

كتب السيد «خافيير سولانا»، الممثل الأعلى للعلاقات الخارجية والشئون الأمنية بالاتحاد الأوروبى مقالاً مهماً بعنوان «برشلونة بعد عشرة أعوام دفعة جديدة لرؤيا باقية» ونشرته الأخبار يوم الخميس الماضى على هذه الصفحة بتاريخ ٢٤/١١/٢٠٠٥. وأجد - من باب المزيد من تعميق الحوار والترحيب به - أن أقوم بالتعليق على هذا المقال المهم، وذلك بحكم أننى واحد من الذين تفاعلوا ومارسوا الحوار فى إطار عملية برشلونة الممتدة، حيث كانت أول مشاركة لى فى بدء العملية من خلال بحث علمى عن آفاق التعاون بين شمال المتوسط وجنوبه، وجاء بعنوان «لغويات الوعى واللاوعى كبعد جديد فى إجراءات بناء الثقة: حالة الحوار العربى الأوروبى المتوسطى..» وجاءت هذه المشاركة بتكليف من وزارة الخارجية المصرية التى أحسنت باستضافة كل أعضاء منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٥. وتتابع مشاركاتى بعد ذلك فى إطار عملية برشلونة التى أرى أنها، وكما وصفها السيد سولانا، بأنها تحتاج إلى دفعة قوية فى الاتجاه السليم، خاصة وأنها حيوية للغاية لدفع جهود بناء السلام والتنمية فى منطقتنا لصالح العالم أجمع. وما شجعتنى على هذا التعليق هو روح الحوار والاستمرارية التى تتسم بها عملية برشلونة بصفة عامة، والروح العالية التى يتسم به السيد سولانا.. من هنا أقدم تعليقى فيما يلى من نقاط:

١- يتفق المحلل الموضوعى مع السيد سولانا فيما تحدث فيه عن موضوع «الإيقاع» PACE، فحجم المشاكل وتداخل الأحداث من ناحية ومنظومة التفاوض وكثرة عدد المفاوضين وتمثيلهم «عبر الثقافات» من دبلوماسية المسار الأول الرسمية إلى دبلوماسية المسار الثانى المتمثلة فى الإعلام ومنظمات المجتمع المدنى والمفكرين المشاركين فى عملية برشلونة؛ يفرض تحدياً كبيراً جداً على إمكانية تحقيق الأهداف الإيجابية التى تم الاتفاق عليها بين دول شمال وجنوب المتوسط.

ولذلك أرى أهمية وجوب السعى الأكبر لتحسين قنوات التواصل وآلياتها لتفعيل أكبر لحالة الحوار بين المشاركين.

٢- نشارك السيد خافيير سولانا أهمية التطور الذى تحقق بدخول أوروبا إلى معترك إدارة الصراع العربى الإسرائيلى من خلال اللجنة الرباعية، بعد أن كانت هناك صعوبات أو تأخر فى دخول أوروبا - الأقرب فهما لمشكلة الشرق الأوسط - لتكون

لاعبا محوريا، ولا شك أن اشتراك أوروبا بدعم عملية السلام ودعم الفلسطينيين لهو أمر محمود ومهم، خاصة دخول الاتحاد الأوروبي بصيغة فاعلة كمراقب للمعبر الحدودى فى غزة مؤخرا، ففى هذه الخطوة تحرك إيجابى لفتح الأبواب المغلقة لتحرير ودعم الاقتصاد الفلسطينى، وهو الأمر الذى يحتاج بالقطع إلى مزيد من الخطوات على هذا الصعيد..

٣- نتفق مع السيد سولانا فى أهمية المعادلة التى رصدها فى مقاله بخصوص عمليات الإصلاح التى لا بد أن تنبع من الداخل العربى، وأهمية مد العون الإيجابى أكثر لمن يتجاوب مع معايير «الحكم الرشيد فى بلاده» فهذا النمط من المعادلات أكثر جدوى من منهج التدخل الخارجى المفروض والمرفوض قطعاً من شعوب المنطقة.

٤- فيما يتعلق بموضوعات الهوية والتعددية الثقافية والتعامل مع هذا المحور، فإن هذا البعد وملفاته المتعددة سواء فيما يتعلق بالداخل الأوروبى اليوم، أو فيما يخص دول جنوب المتوسط، فإنه ولاشك بحاجة ماسة إلى المزيد والمزيد من التفاعل والنقاش والتفاوض البناء، للوصول إلى حلول لصالح الجميع، وربما لضيق المساحة أرصد هنا مطلباً مهماً وهو المزيد من التفاعل الإيجابى لوقف الترويج للخلط القائم بين الإسلام والإرهاب، وتجريم كل من يعتدى على الهوية الدينية للآخر.. سواء كان ذلك فيما يتعلق بالإسلام اليوم أو أى ديانة أخرى.. ولا بد من رفع شعار أن المخطئ هو أو هم أفراد وليسوا جاليات، وليسوا أوطاناً.. فهذا الفصل المهم يحد من المشاعر التى تتأجج عند حادثة هنا أو هناك.. وتفعيل وتحقيق هذا المطلب يدعم عملية إدارة جميع الأزمات التى قد تحدث ويساعدنا على استباقها ومنع حدوثها لصالح الجميع.. وفى النهاية تحية لكل من يسعى بجد واجتهاد فى هذا العالم نحو مجتمع عالمى أكثر أمناً واستقراراً وإنسانية ونماءً. والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب الأخبار ١٢/١٢/٢٠٠٥)

١٢ - العرب وحوار الشمال والجنوب

وتحديات التفاوض فى قمة المعلومات ١٠٠

انعقد بتونس فى الفترة من ١٧-١٩ نوفمبر ٢٠٠٥ ما عُرف بالقمة العالمية لمجتمع المعلومات، ولقد حضر فاعليات هذه القمة ١٧ ألف مندوب من ١٧٣ دولة.

والأجندة الرئيسية المعلنة لهذا المؤتمر وما ينبثق عنها، تتعلق بموضوع الفجوة الرقمية بين شمال العالم وجنوبه، أو بين الدول المتقدمة والنامية، وهو الامر الذى تعرضنا له بشيء من التفصيل فى مقال سابق فى سلسلة الحديث عن تدشين القاعدة العلمية فى مصر بالمستوى الذى ينبغى وأن يكون. ولا شك أن رصد ما يحدث فى هذا المؤتمر يعتبر امتكالا للقضايا التى خضنا فيها.

ولعل من الضرورى توضيح قصة وخلفية هذا المؤتمر التى تساعدنا كذلك على فهم طبيعة مفهوم «العولمة» بشكل ملموس، فهذا المؤتمر هو كذلك استكمال لمسيرة «العولمة» المتخذة لعدة اتجاهات.. فمعظم مفاوضات ما يعرف بعمليات العولمة يأخذ شكل «سلسلة» من المؤتمرات الدولية الكبرى.. وفيما يتعلق بتكنولوجيا المعلومات وما عُرف «بالفجوة الرقمية» فلقد سبق مؤتمر تونس الأخير، المؤتمر التحضيرى الأول لقمة المعلومات فى الفترة من ١٠-١٢ ديسمبر ٢٠٠٣ فى جنيف بسويسرا، والذى شهد قبل انعقاده جلسات تفاوضية مكثفة بين ممثلى الوفود، والتى لعب الوفد السويسرى المنظم للمؤتمر الأول جهدا رئيسيا، وكان ذلك بهدف عمليات وضع أجندة المؤتمر المعقدة (Agenda Setting)، خاصة فى ظل وجود رؤى تتسم بالتباين الكبير بين الوفود المشاركة.

ولقد صاحب تلك العمليات مؤتمرات دبلوماسية المسار الثانى المتمثلة فى عدة مؤتمرات محلية تصب نتائجها عند «مصب» مؤتمر القمة العالمية الأولى للمعلومات. ولقد اتسمت طبيعة الطرح التفاوضى بموضوعات وأسئلة على غرار ما يلى.

١ - كيف يتم عبور «الفجوة الرقمية» بين الشمال والجنوب فى ظل تباين آخذ فى الازدياد سيؤثر سلبا على العالم اجمع فى نهاية المطاف؟ وهذا السؤال يتعلق بالتكلفة العالية وتبوعها التقنية، والمتمثلة فى استخدام الكمبيوتر وبرامجه بالنسبة للدول النامية والفقيرة والتى تتوافر فى البلاد المتقدمة والغنية.

٢ - من الذى يسيطر على عمق عمليات شبكة الإنترنت فى المستقبل؟، وهذا السؤال معروف الإجابة إلى الآن.. فالذى يسيطر على شبكة المعلومات هو «الأخ الأمريكى الأكبر».

وذلك من خلال أشهر جمعية أهلية (The BIG Brother) غير حكومية تسمى بـ (ICANN) وهى إختصار للكلمات التالية بالإنجليزية : شركة الإنترنت للأسماء المحددة والأرقام الكودية.. وهذه الجمعية هى جمعية قريبة الصلة جداً بالحكومة الأمريكية، وهى المسيطر الفعلى على عمق عمليات شبكة الإنترنت. وهذا السؤال الخاص بالسيطرة كان محور إهتمام ممثلى الاتحاد الأوروبى.. حيث هناك صراع ما يدور على أهمية نزع الهيمنة الأمريكية من على الشبكة وتحويل عمليات السيطرة على الشبكة إلى عمليات مشتركة بين الدول، وخاصة بين الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة.. وهناك كذلك أجندة تنادى بأن تنتقل السيطرة من الدول إلى الأمم المتحدة، ولكن هذه الأجندة معقدة وصعبة ومتداخلة، وتتقاطع مع كل النداءات والاقتراحات والمطالب الخاصة بإعادة صياغة دور الأمم المتحدة ذاته، وعلاقة الأمم المتحدة بالدول الكبرى وخاصة بأمريكا.. الأمر الذى جعل البعض يقول من باب الطرافة مصطلح «الأمم المتحدة الأمريكية»!! كنوع من الإسقاط على طبيعة الإصلاح الذى ينبغى إحداثه للأمم المتحدة، ليعبر الاسم عن دلالاته المفترضة، وبخصوص هذا الامر، تم وصول المفاوضات إلى إبقاء الامر، كما هو عليه، ويقال إن هناك صفقة حدثت بالفعل بين المعنيين بهذه الأجندة، حيث صرح احد المفاوضين الألمان على سبيل المثال بأن من الأفضل إبقاء أمر الشبكة فى الوقت الراهن كما هو عليه.. وقوله بخطورة تقاسم السيطرة على قطاعات الشبكة.. على الأقل فى الظروف الدولية الراهنة.

٣ - هناك أجندة أخرى ترى توسيع الأجندات المطروحة إلى أمور أكثر من النطاقات الفنية الضيقة إلى موضوعات سياسية أخرى «غير من يسيطر على الشبكة .. أمريكا أم أوروبا أم الأمم المتحدة».. إلى مسائل تتعلق بحقوق الإنسان، والموضوعات الخاصة بالهوية الثقافية، والتعددية اللغوية، والملكية الفكرية إلى آخره.

هذا بعض ما يمكننا إثارته فى مساحة هذا المقال الذى أردنا أن نلقى من خلاله الضوء على ضخامة الأجندات وصعوبة إدارتها فى ظل أكثر من مائة وفد مشارك

وهي أمور تحتاج إلى فترة زمنية طويلة، لتسفر المفاوضات فيها إلى شيء يحقق نوعاً من التوازن في علاقات الشمال بالجنوب.. فالأمر يرتبط بالقواعد العلمية والمجتمعية الداخلية القادرة على إدارة مثل تلك التحديات الكبيرة التي أشرنا إلى أهمها.. ولكن اللافت للنظر هو الاستخدام الخلل لمصطلح الحل الوسط (COMPROMISE) فالحل الوسط الذي يبدو أن القمة في تونس قد انتهت عليه هو ترك الأمور كما هي عليه.. حتى إشعار آخر، والله ولي التوفيق. وللحديث بقية.

(الكاتب-الأخبار، ٢٤/١١/٢٠٠٥)

١٣ - مواجهة الإرهاب .. معجميا

**** سافرت لإلقاء بحث لى فى المؤتمر الدولى الذى عقد بجامعة أكسفورد العريقة (٣٠-٣١ يوليو ٢٠٠٤) عن البرمجة اللغوية العصبية والتفاوض الجماعى واستخدامها لفهم وإدارة مشاكل التدخين وإثارة المدمرة على عدة أصعدة، وما يشهده هذا الأمر من اسئلة علمية واجتماعية واعلامية إقليمية ودوليا.**

فى وقائع المؤتمر قدم أحد الباحثين المتميزين دراسته عن تطوير المعاجم العربية الإنجليزية والعكس، بحيث تكون أكثر دقة فى توصيل المعانى دون لبس وغموض، وهذا الباحث بلجيكي وهو الدكتور «مارك فان مول» وأوضح الجهود فى هذا الصدد فى إطار ما يعرف اليوم بعلم «لغويات الماسوب» [computational linguistics] والكلام يطول عن مستويات الطرح فى هذا المجال الواعد الذى ينبغى أن نعد الباحثين عندنا فى إطاره كأحد فروع علوم اللغويات الحديثة والمهمة، إلا أننى وعندما سألته وهو يتقن العربية والإنجليزية بجانب لغته الأم أن يترجم طبقا للمنظومة التى عرضها كلمة «ترهبون» كما جاءت فى الآية القرآنية الكريمة «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» [الأنفال ٦٠].

وجدت الكلمة لن تخرج عن ترجمتها إلى كلمة [Terrorize] كالعادة وهى ترجمة على المستوى السطحي، والكلمة هذه وفى سياق هذه الآية الكريمة يساء استخدامها فى الحملة ضد الإسلام فى الغرب للتدليل الخاطى على أن كلمة الإرهاب فى عمق النص القرآنى والعياذ بالله، وهنا أوضحت أن الترجمة الدقيقة لا يمكن أن تكون كلمة [Terrorize] بالإنجليزية الشائعة ولكن [Semantic Value] فإن «ترهبون» تعنى بالإنجليزية كلمات أخرى لا غبار عليها للمتلقى فى ثقافة اللغة الإنجليزية، لأن الكلمة فى سياق الآية الكريمة تأتى طبقا لتحليل المعنى العميق «تردعون» «Deter» أو بمعنى ترغمون الآخرين على احترامكم فلا يعتدون (To In- still Respect) وأوضحت لأنه من القواعد الصارمة لتدقيق الترجمة ما يعرف بسوابق الخطاب ولواحقه، واللاحقة المفسرة للمعنى الدقيق بالعربية لكلمة «ترهبون» بمعنى الردع هو ما يأتى بعد الآية الكريمة مباشرة فى قوله تعالى: «وَأِنْ جَنَّحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» [الأنفال ٦١] وما أرقى المعنى الإنسانى، أى أن الردع هو لتحقيق السلام وعدم التجرد من قبل الآخرين. إذن فهو أبعد ما يكون عن معنى الإرهاب الذى يروج له خطأ ويلحق بتعسف شديد بالإسلام، وهنا قال الباحث وأجمع الباحثون فى هذا المؤتمر على أهمية صياغة معاجم من

النوع المفسر بالنص والنصوص الثقافية الخاصة، وهذا النوع من المعاجم ليس موجودا إلى اليوم، ومن هنا ستظل الترجمات الخاطئة للقرآن الكريم - وبعضها غير مقصود بالفعل - عائقاً في تحسين صورة العرب والمسلمين، وبالتالي فنحن في حاجة ماسة إلى الإسراع بكتابة معجم يشارك فيه نخبة من الخبراء والعلماء، وليكن سريعاً، فيتم من خلاله رصد كل الآيات والمقولات التي تعكس ترجمات خاطئة بسبب قلة تدريب المترجم المحترف، وكذلك شيوع قواميس بدائية بحاجة ملحة للتطوير، ولتكن البداية السريعة والملحة نشر معجم لتفسير المفاهيم الخاطئة عن العرب والإسلام في العقل الغربي.... فهذا جهد مطلوب وينبغي أن تعطى له الأهمية العاجلة من قبل كل من يهتم هذا الأمر.

(الكاتب-الأهرام ٢٠٠٤/٨/١٨)

١٤ - «خبراء الإسلام» في الغرب !!

قبل ١١ سبتمبر وبعده كان هناك ما يعرف على صعيد التفاعلات الدولية «ب خبراء الإسلام».. أى هذا النفر من الباحثين الغربيين المتخصصين فى فهم الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى، وهم بالتالى يقومون بإفهام الجمهور الغربى فى كل مناسبة أو حدث يتعلق بالمسلمين بما فهموه أو يفهمونه عن الإسلام والمسلمين.. أى أنهم يقومون بشبه دور الوسيط بين الغرب والعالم الإسلامى.. والمشكلة التى عانى ولا يزال يعانى منها العالم العربى الإسلامى يتمثل فى جزء كبير منها فى هذا «الوسيط» الغربى من خبراء الغرب، ومثل هذه الوساطة الفكرية كثيرا ما تمثل ما يمكن تسميته بعدة أوصاف، مثل : «الفلتر غير الجيد» أو «الوسيط المفتعل» أو أحيانا «الوسيط المخرب».. ولكن ومع ذلك توجد هناك قلة قليلة من الموضوعيين أمثال الكاتبة البريطانية المعروفة كرين أرمسترونغ التى تقدم هذه الأيام مجموعة من المحاضرات فى القاهرة، وسوف نعود فى المقال القادم للحديث عن هذه المحاضرات.

لقد كان ولا يزال موضوع ما يمكننا تسميته «ب خبراء الإسلام فى الغرب» من الموضوعات التى ينبغى أن ندرس تأثيراتها المتباينة والمتعددة المستويات فيما يتعلق بالعلاقة بين العالم العربى الإسلامى والغربى، ولقد خضنا فى أكثر من سياق سابق فى هذا الموضوع المركب وكان آخر هذه السياقات عندما دعانى الأستاذ أحمد عبدون فى برنامج التليفزيونى الناجح «عم يتساءلون» إلى مداخلة مع د. خالد أبو الفضل مستشار الرئيس جورج بوش للشئون الإسلامية.. ودأبوا الفضل هو محام أمريكى من أصل مصرى ناجح فى أمريكا.. ولكن عندما سألته كيف لكم لا تتدخلون لدى الرئيس جورج بوش وأنتم أحد مستشاريه لتصحيح ما يقوله له خبراء آخرون بخصوص مغالطات ومعلومات غير دقيقة عن الإسلام ذاته، أو بخصوص ما يشيعونه هؤلاء وهم من الأسماء المعروفة فى الولايات المتحدة من آراء ومفاهيم مغلوطة تروج فى واقعها لحرب ضد الإسلام.. بغض النظر عن التصريحات الدبلوماسية للرئيس بوش عن أن حربه ضد الإرهاب وليست ضد المسلمين أو ضد الإسلام كدين.

فلقد أورد له مثل هذا النفر المسمى «بالخبراء فى الإسلام» نصوصا انتزعت من سياقها ومن معناها الأسمى وأصبحت من جراء ذلك عكس ما يذهب إليه جوهر هذا الدين الحنيف الذى يركز فى كل مقوماته على إشاعة قيم إنسانية رفيعة كالعدل والمساواة واحترام حقوق الغير وحرية الاعتقاد.. إلى آخره.. ولكن ما كان بمثابة مفاجأة فى إجابة د.أبو الفضل.. أنه سارع بقوله إن كونه مستشارا للرئيس بوش للشئون الإسلامية لا يعنى أنه من المقربين إليه.. وأن المقربين له هم من ذلك النفر

الآخر من الخبراء.. وهذه الاجابة أوضحت العمق الحقيقي للمشكلة التي نحن بصدها، وهى مشكلة توصيل المعلومات الصحيحة والدقيقة عن الإسلام والتصدى للزيف والتلفيق المتعمد أو غير المتعمد الذى تدفع ثمنه دول العالم العربى الإسلامى وكذلك الجاليات المسلمة فى أمريكا وأوروبا اساساً.

عندما سألته كذلك ماذا تفعلون للتعامل مع الإعلام الأمريكى الذى يقدم هو الآخر قائمة عن «خبراء الإسلام فى الغرب» وهم ممن لا يقدمون كذلك تلك الصورة الصحيحة وتلك المعلومات الدقيقة.. هذا رغم وجود مساحات لا بأس بها فى الإعلام الأمريكى لمن يدركها ولمن يستطيع استغلالها كما كان يفعل إدوار سعيد المفكر المعروف والأستاذ بجامعة كولومبيا، وكذلك كما أدركها واستغلها شاكر بك وزير خارجية البوسنة الذى كان يمتلك مهارات دبلوماسية وتفاوضية عالية، فإذا به يستطيع استغلال قدر كبير للغاية من المساحات الموجودة فى الإعلام الأمريكى بطبيعته رغم كل ما يوصف به هذا الإعلام من تعنت وانحياز.. فهذا القدر كان كافياً لكى يتحرك ذلك الإعلام ويحرك معه الأجندة السياسية، فلا يصبح تابعا لها كما هو الحال فى أكثر التفاعلات.. وكان نتيجة لهذا الجهد الفردى الرائع لشاكر بك أن أسهم ذلك كثيراً فى تفعيل التدخل الدولى فى البوسنة حتى تحقق اتفاق ديتون للسلام.. إلى آخره.. وشاكر بك ومعه أمثلة أخرى قليلة تحتاج إلى مساحات أخرى، فهو من أمثلة الكوادر والخبراء الذين يستطيعون تمثيل الإسلام بشكل مباشر بعيداً عن فلتر «خبراء الإسلام فى الغرب».. وعندما ذكرت ذلك لمستشار الرئيس بوش د.أبو الفضل.. كان رد الرجل فى حدود مشكلة المصادر والميزانيات.. وهو ما لا أقتنع به.. ولعل الأمر بحاجة إلى إدارة معادلة دقيقة ينبغى أن تشارك فى إدارتها الدول العربية الإسلامية من داخلها مع بناء جسور للتواصل بأسلوب شبكى جديد نقوم نحن بتدشينها لتشمل كل الخبراء الممثلين الحقيقيين للعالم الإسلامى.. ومعهم كل الخبراء والمحللين المنصفين فى الغرب.. فهذا الفعل الإيجابى الذى سوف أتحدث عن المزيد من التفاصيل بخصوصه، سيكون لصالحنا بالتأكيد، وكذلك لصالح العالم أجمع.. فهناك فضولية غربية أمريكية، خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وبعد فشل ما يسمى «بالحرب العالمية ضد الإرهاب» التى أدت إلى عكس ما أعلنه بوش بخصوصها.. حيث زاد الإرهاب وزاد عدد الضحايا الأبرياء.. ولا يمكن للعالم إلا أن يعود لكتلته الصامتة فى كل من العالم العربى الإسلامى وفى الغرب لتدشين تفاعلات أخرى.. لا بد أن نكون نحن أصحاب المبادرات الإيجابية بخصوصها، والله ولى التوفيق، وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ١٥/١٢/٢٠٠٥)

١٥ - سيزكين والتصدى «لجيش المزيفين» !!

فى لقاء علمى استضافه أ.د. أحمد الطيب، رئيس جامعة الأزهر، وضم عدداً من أساتذة الجامعة وضيوفها الكرام ومن بينهم مفتى الديار المصرية فضيلة أ.د. على جمعة، قدم د. فؤاد سيزكين محاضرة مهمة من حيث موضوعها وجاءت بعنوان «أهمية الأسناد فى العلوم العربية والإسلامية». والدكتور فؤاد هو ذلك المؤرخ والمستشرق المعروف، وينحدر من أصول تركية، وأمضى حياته العلمية فى ألمانيا، ويشغل منصب «مدير معهد العلوم العربية والإسلامية بجامعة فرانكفورت».

ولقد قدم د. سيزكين عدة محاضرات فى مصر، منها : «وصول العرب والمسلمين الأمريكتين واكتشاف غرب الأرض ووضع خرائطها قبل كولومبس»، و«المدخل الى تاريخ العلوم العربية الإسلامية».

ونركز فى هذا المقال على محاضراته التى ألقاها بالجامعة الأزهرية، فنرصد اللقطات التفاعلية التالية:

١ - كان د. «سيزكين» موضع الحفاوة والتقدير الكبيرين من رئيس الجامعة ومن كل الحاضرين نظراً لتقديرهم لدوره المتواصل عبر ما يقرب من نصف القرن من الجهاد العلمى المطلوب لإظهار الحقائق المطموسة عن الحضارة العربية الإسلامية وكشف الأخطاء المنهجية فى التعامل الاستشراقى مع تاريخ العرب والمسلمين.

٢ - أكثر ما استوقفنى فى حديث د. سيزكين هو إدانته لما وصفه بـ «جيش كبير من المزيفين».. الذين سعوا إلى تزييف الكثير فيما يخص التراث العربى الإسلامى عن جهل أو حقد وسوء نية.

يقول د. سيزكين : إنه جيش كبير مسخر لهذه المهمة الهدامة، ويعمل فى إطار منظومة كبيرة من التفاعلات.. وأعتقد ان تعبير «جيش كبير من المزيفين» هو تعبير مستجد لمضمون قديم ومتكرر ومماثل لما أقره العديد من المفكرين العرب، فعلى سبيل المثال، أكد إدوارد سعيد على نفس المعنى فى كتابيه عن «الاستشراق» و «الثقافة والإمبريالية» حيث شبه حركة المستشرقين فى معظمها على كونها «المفرزة الأولى» للإستعمار وأنها لم تكن للفهم والتعلم والتعرف على الثقافات الأخرى بهدف التواصل الإيجابى.. بل لتحقيق الغزو الاستعمارى الغربى للعالم العربى الإسلامى.

اذن لا يخفى المحلل الموضوعى فى أن يرى فكرة «الجيش الكبير للمزيفين»

متجسدة ورئيسية في فكر سيزكين وكذلك في فكر إدوارد سعيد، بل وفي غيرهما من العديد من مفكرى ومحللى العالم العربى الإسلامى.

ولكن ما يستوقفنا بشدة هنا أن مقاومة مثل هذا الجيش الفكرى لا تتم إلى الآن بشكل منظومى جماعى، وإنما من خلال جهود فردية ومبعثرة تستشعر حالة قوية وحادة من فصول الحروب الثقافية القائمة، حتى أصبحت معها مصطلحات ما يمكننا تسميته «بالقتال الفكرى» عالية الوتيرة ومعبرة عن ضراوة ما نواجهه.. ولعللى أرصد هنا للتدليل على هذه الظاهرة ما ورد فى ختام مقال كتبه د. حسن نافعة عن إدورد سعيد، نشر مؤخراً فى مجلة ألف «العدد ٢٥/٢٠٠٥» حيث اختتم د. نافعة مقاله قائلاً : «لقد سقط إدورد سعيد على الدرب وهو يحمل أنبل شعلة.. ولن يكون بوسع أحد أو حتى عشرة أن يحلوا محله فى القريب العاجل، فلقد كان كتيبة، بل قل جيشاً بأكمله».

والفقرة أعلاه تذخر بمفردات عسكرية الفكر الذى تستشعره الأمة. من هنا نعود إلى سيزكين الذى أكد أكثر من مرة فى محاضراته أن هدفه هو أن يستنهض طاقات كل الغيورين على هذه الأمة العربية الإسلامية لينفروا للدفاع عن أمتهم وإبطال عمل «جيش المزيفين».. وإنه لمستمر فى جهاده العلمى والمشروع.

٣ - آخر اللقطات التفاعلية فى محاضرة سيزكين تتعلق بثلاثية اللغة والفكر والثقافة وهنا نرصد نقطتين على درجة كبيرة من الأهمية وهما :

أ - حين طالب أحد الأساتذة د. أحمد الطيب رئيس الجامعة بإستضافة أكبر قدر من المستشرقين لمحاورتهم، أكد د. أحمد على الأهمية الكبرى لتعلم وإتقان اللغة ومفاهيم الثقافة الأخرى وفهم مفاتيحها كمطلب أساسى لنجاح مثل هذه الحوارات، فبدونها يظل العائق كبيراً، ولقد كان هذا الأمر مع كل الأسف حاضراً بشكل أو بآخر فى تلك المحاضرة، حيث كانت مهمة فهم ما يقوله د. سيزكين الذى يتحدث بالعربية مهمة شاقة إلى حد كبير، فكان هذا الأمر بمثابة العائق لفهم أجزاء عديدة من مقولات د. سيزكين إلا أن الأمر الذى عوض ذلك هو المعرفة المسبقة بفكر د. سيزكين وحب الحاضرين الكبير له وإحساسهم ومعرفتهم بمنزلته العلمية الكبيرة وحماسه الكبيرة.

ب - عندما تعرض د. سيزكين لآراء بعض المستشرقين عزا المشكلة إلى عدم فهمهم ووعيهم بعمق مفاهيم الثقافة العربية الإسلامية، خاصة فيما يتعلق بفهم آليات الثقافة الشفهية والثقافة الكتابية لدى بعضهم وسوء نية البعض

الآخر. وهنا علق بعض الحاضرين بقولهم إن المشكلة العميقة هي في توفر «سوء النية».. ونحن نتفق بالطبع أن سوء النية هو أصل كل المشاكل والأزمات الممتدة في هذا العالم على اتساعه وليس فقط في إطار تفاعلات الإسلام والغرب، ولكن لابد ونحن بصدد إدارة مثل تلك الأزمات التي لا نريد لها المزيد من الانفلات والتدهور، أن نسعى جاهدين، خاصة ونحن في «غبار معارك الفكر المتعسكّر» الذي أشرنا إليه في «٣» أعلاه؛ أن نحاول إعطاء مساحة أكبر رغم صعوبة هذا الأمر في الأجواء الراهنة لوضع العديد من التفاعلات في مكانها في خاتمة «سوء الفهم غير المتعمد» وذلك من باب القاعدة المقصدية الكبرى المتعلقة بأهمية بذل المزيد والمزيد من الجهد لاستجلاء الحقائق بكل دقة.. فهذه المساحة ضرورية للغاية لاستمرار كل أشكال الحوار التفاوضي الممكن، والذي يمكننا من خلاله كسب أرضيات وجولات فكرية.. إن إلغاء مثل هذه المساحات الفكرية لا يمثل غلقاً لكل قنوات الحوار الإيجابي الممكنة والمتبقية، بل هو أمر أرى أنه عكس سنن الله في خلقه.. فالاختلاف وعدم فهم البعض للبعض الآخر لمن السنن الكونية.. وبالتالي فإن إدارة الاختلافات والتماس الحد الأدنى من «حسن الظن» وعدم التعميم الإطلاقي لسوء النية هو مطلب علمي وإيماني معاً، يعود إلى المعنى العميق في الآية الكريمة : «فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»، إلا أن التفاعل في إطار مثل هذه المساحات المطلوبة وتدشينها ليجتاج إلى تدريب ومهارات حوارية ومعرفة عميقة باللغة والثقافة على الجانبين، كما يتطلب الصبر وقوة الإحتواء الإيجابي. ويبقى بعد ذلك وقبل ذلك السؤال الكبير المفتوح والمتمثل في : ما السبيل إلى حوار إستراتيجي، نديره من خلال منظومات كبرى يمكنها التعامل مع منظومات «جيش من المزيّفين»؟. هذا السؤال ينبغي لكل غيور على هذه الأمة.. لا أن يجيب عنه فقط، بل يسعى لتفعيل تلك المنظومات الإستراتيجية ويجعلها حقيقة لأمة تبني الإخاء وترد كيد المعتدين. والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٥/١٢/٣)

١٦ - خطاب أرمسترونج عن الإسلام

تحدثنا في المقال السابق عن موضوع «خبراء الإسلام في الغرب» وأهمية أن نقوم بدراسة خطابات هؤلاء الخبراء الذين يلعبون دوراً حاسماً في نقل الصورة عن الإسلام والمسلمين للمتلقي الغربي، سواء على مستوى الجمهور العادي من خلال الإعلام أو على مستوى السياسيين من خلال الاستشاريين. وفي هذا المقال نقدم قراءة أولية لواحدة ممن ينطبق عليهم مصطلح «خبراء الإسلام في الغرب».. وهي الكاتبة المعروفة عالمياً كرين أرمسترونج، والتي قدمت عدة محاضرات في القاهرة في الأسبوع الماضي، ولقد حضرت المحاضرة الرئيسية لها والتي أقيمت في قاعة إيورت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وحضرها حشد غفير من المهتمين. وكرين أرمسترونج هي راهبة «سابقاً» وكاتبة بريطانية ذات اهتمام كبير بموضوع الأديان، ولها مؤلفات مهمة وعدد كبير من المقالات في الإعلام الغربي عن نفس الموضوع، ومن أهم ما كتبت من كتب أصبح لها صيت ذائع وإقبال جماهيري كبير ما يلي : كتاب بعنوان «محمد ﷺ» وكتاب بعنوان «بداية العالم» وكتاب عن القدس بعنوان «القدس : مدينة واحدة وثلاثة أديان» .. إلى آخره وفي كتابها عن الرسول محمد ﷺ كما في مقالاتها العديدة عن الإسلام، فلقد ذهبت إلى القول بأن الإسلام لا يعرف العنف أو الإرهاب في جوهر قيمه، بل إنه دين يدعو إلى السلام بأعمق معانيه وللتسامح، ويتسم بالرحابة الكبيرة وصلب العقيدة، ويدعو للتعددية والاقتراب من الآخرين، وليس إلى الإقصاء والأحادية التي تدعو إليها صلب عقائد أخرى (طبقاً للكاتبة) من هنا فإن كرين أرمسترونج في أول ردود أفعالها عن أحداث ١١ سبتمبر قالت إن من الخطأ الشديد أن تعاملت سلطات الأمن، خاصة في أمريكا مع أي مسلم على أساس أنه «إرهابي محتمل» وهنا مكمن الخطأ.. لأن الإرهابيين الذين دمروا أبراج نيويورك.. كانوا من هؤلاء الذين ذهبوا ليلة العملية إلى النوادي الليلية وشربوا «الفودكا» وصاحبوا فتيات وهم بذلك لا ينتمون لتعاليم الإسلام التي تمنع ذلك بشكل حاسم.

وتحذر كرين أرمسترونج من التداول الخاطئ لمفهوم الإصلاح بإسقاط معانيه على العالم العربي الإسلامي بالسعي لتطبيقه على غرار الإصلاح الديني الذي تم في أوروبا في سياق عقائدي وثقافي واجتماعي مخالف تماماً عن السياق الحاضر أو التاريخي للعرب والمسلمين.. فتقول : إن في هذا جهلاً بمفهوم الإصلاح، حتى في سياقه الغربي، ولذلك فإنه لابد من الاقتراب من هذا المفهوم المثير للجدل في سياقه الأصلي بعيداً عن فكرة القولية أو الاستنساخ.

تقول كرين أرمسترونج وهي تحاول صياغة فكرة للأرضية المشتركة بعيداً عن المقولات التي تندرج تحت باب «صراع الحضارات» التي تم الترويج لها بشكل مكثف في الإعلام الغربي : «إن فكرة صدام الحضارات هي فكرة خاطئة، بل أكثر من ذلك فهي مدمرة، ولن يستفيد منها أحد في نهاية المطاف، ولكن الأقرب هو النظر إلى جوهر القيم المشتركة المتعددة بين العالم العربي الإسلامي والغرب وأنه من المفيد للعالم أجمع السعي لتفعيل هذه القيم على الجانبين.. لأن الفكر المتطرف هو فكر لا يخص إلا المتطرفين على الجانبين» وعددت كرين العديد من خصائص فكر التطرف بأمثلة عديدة من الواقع الغربي ذاته، وذكرت أن خطورة التحركات التي تنسم بالجهل تتمثل في إحداث واختلاق نوع من النقائص، كأن يفترض البعض أن العلمانية Secularism هي العلاج الشافي للبشر كلهم، فلا يدرك من يروجون لذلك أن التعامل مع التطرف ليس بغرض العلمانية، إنما بالتفسير الصحيح لجوهر الدين.. فالمتطرفون من الأديان كلها لهم سمات واحدة، ومن أهمها تجاهل الأولويات والشعور بالخطر من الرأي الآخر وكره التعددية والهروب منها واستخدام العنف والترويع.. وبالتالي فإن علاج التطرف لا يأتي من خلال العلمانية كما يروج لذلك البعض، بل يأتي الحل من داخل الدين نفسه بالتفسير الحقيقي لجوهر الدين وليس بتفسير المتطرفين وأفعالهم.. وفي دراسة لها بخصوص القدس.. نتوقف أمام هذه الفقرة التي تقول فيها :

«إن المدينة، أي مدينة لا تكون مقدسة إذا حُكمت بالظلم وترك العدل.. ومورست فيها إجراءات ضم الأراضي وتدمير ممتلكات الغير وتهديد أماكن عبادة الآخرين وطرد الأمنيين من بيوتهم وحرمانهم من أسس حقوق الإنسان.. كل هذه الممارسات لا يمكن تبريرها.

وتساءل كرين أرمسترونج في نفس هذا السياق بقولها : «إن عرب فلسطين يسألون لماذا يعانون من فقدان وطنهم بسبب جرائم لم يرتكبوها؟ وهي جرائم معاداة السامية التي ارتكبت في أوروبا ضد اليهود.. فلماذا يتحمل الفلسطينيون هذا الثمن؟! يحتاج خطاب أرمسترونج إلى قراءة أكثر تفصيلاً بالطبع.. ولكن لعل من المهم أن نسعى لتدشين موسوعة تعنى بخطابات «خبراء الإسلام في الغرب..» لأن هذه الخطابات متعددة ومتفاوتة، وإن كان أغلبها لا يخدم الأجندة التفاوضية العادلة للأمة العربية الإسلامية وينبغي التصدي لها وتفنيدها. إلا أن هناك خطابات عادلة من المهم إدراكها وإقامة رؤوس كبارى إيجابية معها.. وهو الأمر الذي سنعود إليه في مقالات قادمة لنتناول مزيداً من هذه الخطابات بالتحليل. والله ولي التوفيق، وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ٢٢/١٢/٢٠٠٥)

١٧ - مناظرة مع فريدمان: الإرهاب الدولي مسئولية من؟

كماداته يطرح الكاتب الأمريكي توماس فريدمان موضوعات تثير الجدل وتستدعي المناظرة والحوار، ولاشك أن مقاله فى جريدة النيويورك تايمز بعنوانه الطويل: «إذا كانت المشكلة مشكلة مسلمين، فإنها تحتاج إلى حل من المسلمين..» (٢٠٠٥/٧/٨).. والمقال يعبر عن اختزال كبير لمشكلة الإرهاب الدولية، وهو يعبر كذلك عن قطاع كبير فى الإعلام الغربى، ويتأثر به عدد كبير من صانعى القرارات والجمهور العادى فى الغرب، ومن ثم وجبت مناظرته. وسنقدم هذه المناظرة من خلال مستويين هما:

أولاً: تحليل طرح فريدمان من منظور نظرية الإدراك الذهنى لأطر المشاكل التفاوضية : وهذه نظرية راسخة فى لغويات التفاوض لأنها تمد أى مفاوض بالأدوات الرئيسية التى تمكن من التعرف الدقيق على حجم الأطر التى يتعين عليه تحديدها للتعامل مع مشكلة ما.. ولقد ثبت أن هناك الكثير من عمليات التفاوض تخفق بسبب أن الأطراف لم يستعينوا بالعلم الموضوعى لتحديد أطر المشاكل البسيطة، فما بالنا بمشكلة مركبة ومعقدة كمشكلة الإرهاب الدولي ؟

لقد قدم فريدمان فى طرحه بالمقام المشار إليه والذى دعمه بنفس أسلوب الطرح الآحادى فى مقاله أخيراً بعنوان «فقر الكرامة وثروة الغضب فى ٢٠٠٥/٧/١٥» مشكلة الإرهاب ذات الأطر المتعددة على أنها مشكلة ذات إطار واحد مبالغ فيه ويتم بالتعميم والاختزال غير العلميين.

وخطورة هذا «الإطار الإسلامى» المختزل بمعرفة فريدمان لا يمثل خطأ علمياً فقط، بل يمثل نوعاً من إثارة التعبئة الجائرة ضد كل المسلمين فى العالم.. وهنا تتم عملية التلاعب والترابط مع أطر الحملة المعادية للإسلام والمسلمين فى الإعلام الغربى، فىكون الإطار الإسلامى الأحادى لفريدمان بمثابة نوع من كب مزيد من الزيت على النيران التى أضرمتها أعلام إعلامية متحيزة وجائرة فى تناولها للإسلام والمسلمين، والأدبيات الغربية التى كتبها غربيون منصفون عن هذه الحملة الجائرة كثيرة، ولقد أكد ذلك كوفى أنان فى دعوته لتحالف الحضارات، لا لصدامها، ولهذا سياق آخر.

إننا وفى مناظرتنا لطرح فريدمان وتحميل كل المسلمين تبعات الإرهاب الدولي نقول إن هذا الجو لا يمنعنا من الاعتراف بأننا فى العالم الإسلامى يتعين علينا القيام بدور مهم للغاية لمقاومة التطرف والإرهاب والقضاء عليه فى كل مكان فى العالم بدافع أنه النقيض الأكبر للإسلام، الذى بعث رسوله ﷺ رحمة للعالمين، والذى

يكرس أكبر الاهتمام لنعمة الأمن وعدم «ترويع الآمنين» وإفشاء السلام وإطعام الطعام، وكل القيم السامية التي تجعله الدين الأكثر انتشاراً في العالم اليوم، رغم كل المظالم والمفاسد التي تراها.

ولكن مع هذا الدور المسالم الذي يقوم به الغالبية العظمى من مسلمي العالم المسلمين في صمت، وأهمية المزيد من تفعيله، فإن الدور الذي يلعبه الغرب في تحمل مشاكل الإرهاب ومقاومته في العالم هو الدور الأكبر.. فالمسؤولية الغربية أكبر من المسؤولية الإسلامية بكثير.. لأن الغرب قد صدر للعالم الإسلامي مشكلات عديدة وأسهم في تأسيس فوضى كبيرة على مدى قرون من عدم المصالحة التي آن لها أن تتم لصالح العالم أجمع.

.. وهذه المصالحة تستدعي النقاش والحوار العلمي المستمر والمنصف والعادل وإذا كنا قد بدأنا بأهمية نظرية تناول الأطر التفاوضية العلمية الصحيحة المعاهدة على حل مشكلة الإرهاب بوضع النقاش هنا، وكما انتقدنا طرح فريدمان، نشير إلى الطرح الصحيح الذي لا يتناقض مع هذه النظرية، والذي تجلّى في ردود الفعل البريطانية التالية:

(١) رد فعل توني بليز عقب تفجيرات لندن - التي تؤكد على أنها جريمة شنعاء قام بها مجرمون، والتي حرص من خلالها على الفصل بين الإسلام والإرهاب .. بل عبر عن فخره بإنجازات الجالية الإسلامية في إنجلترا، وأشار إلى أن مشكلة الإرهاب هي مشكلة ذات أبعاد متعددة، ولها ارتباط كذلك بأهمية حل عادل لمشاكل الشرق الأوسط وتحتاج إلى معادلة متكاملة، وهذا كلام يضع المشكلة في أطرها المتعددة بعيداً عن الاختزال الأحادي.

(٢) كذلك صرح السيد .. أحد رجال الأمن البريطانيين عقب التفجيرات أن هذا وقت عصيب لنا جميعاً وعلى الجاليات أن تتوحد، وأن العمل الإجرامي الذي تستهدف لندن كان عمل المتطرفين والمجرمين، من هنا فإن علينا التأكيد.. أنه يتعين على الجميع ألا يصم أو يسيء إلى أى جالية أو أن يجعلها مسؤولة عن الإرهاب.

(٣) في البرنامج الشهير الذي تقدمه الـ BBC بعنوان .. في ٢٠٠٥/٧/١٣، قال السيد فرانكو فراتيني - ممثل مفوضية الاتحاد الأوروبي لشئون العدل والأمن - في رده على سؤال متحيز جاء كما يلي: «هل ستقومون في دول الاتحاد الأوروبي باتخاذ إجراءات صارمة وتصعيدية ضد الجاليات المسلمة؟!»

فكانت إجابة السيد فرانكو بعيدة عن تفخيخ السؤال.. ومتميزة حين قال «الإرهابيون أفراد فقط، وليسوا جاليات» وكرر هذه العبارة للتأكيد عليها. وأعتقد أن

هذه الإجابة تصلح شعارا ينبغي ترديده في جميع وسائل الإعلام المنصفة .. وأضاف مؤكداً إن مشكلة الإرهاب متكاملة، ومتوازنة .. دقيقة وعادلة.

... ولعل في النقاط الثلاث السابقة ما يصحح خطأ الإطار الأحادي الذى وقع فيه فريدمان.

ثانياً : فريدمان ومباريات المعلومات الخاطئة.

المستوى الثانى من التحليل والمناظرة لطرح فريدمان والمعبر عن قطاع كبير فى الميديا الأمريكية خاصة، يتمثل فى البعد العلمى التفاوض الخاص بما يسمى بمباريات المعلومات.

ذكر فريدمان معلومة خاطئة حينما قال «لم يطلع علينا وإلى اليوم أى من شيوخ المسلمين أو أى مجالسهم بفتوى يدين إرهاب وفكر بن لادن ...» إلا أن هذا غير صحيح فهناك مئات من علماء المسلمين ومجالسهم ممن أدانوا فكر بن لادن بوضوح شديد وشبكة الإنترنت زاخرة بهذه البيانات، وعليه أن يدخل على أى موقع إسلامى ليرى بنفسه.

ثالثاً : فريدمان «وأخلاق القرية» :

من الأجزاء الطريفة فى مقال فريدمان تلك الأجزاء التى كرر وأكد فيها أهمية دور القرية وكبرائها فى العالم الإسلامى، وما ينبغى لها أن تلعبه فى توضيح العيب والمباح ودعم التصرفات السوية ومنع التصرفات المشينة.. وطالب العالم الإسلامى والقرية وكبرائها بلعب دور التأكيد على العيب و«اللى مايصحش».

ولعلى ألفت نظر الأستاذ فريدمان لخطب الرئيس الراحل أنور السادات - رحمة الله - التى كان لا يخلو العديد منها إلى الإشارة إلى «أخلاق القرية» مما يدل على عمق وتأصل معرفتنا لدور القرية والأخلاق الإنسانية والشهامة التى يتسم بها أهل القرى عندنا، أى وبصراحة نحن لا نريد من يعرفنا بهذا الأمر .. ولكننى أطالب الأخ فريدمان أن يكتب فى مقالاته القادمة إجابات للأسئلة التالية عن أخلاق القرية:

- (١) أين كانت أخلاق القرية، ومن أهلها وكبرائها، وما نوعها فى الغرب ممن قاموا بأبشع صور التصرفات التى يندى لها جبين الإنسانية فى سجن أبو غريب ؟
- (٢) أين كانت أخلاق القرية، ومن هم أهل القرية الذين دنسوا القرآن الكريم فى جوانتنا ودنسوا وانتهكوا حركة المساجد فى العراق وفى فلسطين المحتلة وفى أماكن أخرى فى العالم؟

- (٣) أين كانت أخلاق القرية، ومن هم أهل القرية الذين قتلوا مئات الآلاف

من العراقيين وحاصروا ملايين أطفالهم الأبرياء وضربوهم بقنابل محرمة، وخلقوا فوضى عارمة غير مسبوقه في العراق، وتسببوا في مقتل وإصابة الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين كان لهم ولأمريكا أن يعيشوا بلا هذه الخسائر الكبيرة بدون حرب افتقدت إلى كل مقومات الشرعية الدولية ؟

وكذلك أوجدت في تبعاتها ما حذرت مصر وحذر الكثير من المنصفين في العالم من تبعاتها.. وكان آخرها هذا العمل البربري الهمجي الذي يكتنفه الغموض لمقتل سفيرنا في العراق - رحمة الله - !

(٤) من هم أهل القرية، ومن هم كبارؤها ممن صنعوا تنظيم القاعدة ؟ وأتذكر هنا قلما أمريكياً متميزاً عن الخيال العلمي كان بعنوان «كيف نصنع وحشاً كاسراً»^{١٢}.

إن قائمة الأسئلة قد تمتد كثيراً على هذا المنوال، ولكن يكفي أن أدعو فريدمان لقراءة كتاب أمريكي متميز للباحث الأمريكي سام كين بعنوان «وجوه العداء» وهو كتاب رائع لفهم «عقلية الحرب» وعقلية الإرهاب وأهمية تفكيكهما.. وأهم ما يقوله في سياقنا هذا ما يلي:

«إذا أردنا أن نجد حلولاً جديدة لمشكلاتنا المعقدة، فإن علينا أن نتحمل المسؤولية لما خلفناه في الماضي» .

(كتاب وجوه العداء: هاربر أندرو .. ١٩٨٦ ص ١٦٩، فهذا المسبيل لحل المشاكل... فهل يتضح لفريدمان ولكل مؤيديه في الرأي.. أهمية الأطر الأخرى المولدة لسياقات الفوضى والإرهاب وتساقط «الغبار اللاحضاري» وبعد كل أحداث الحرب والإرهاب وأهمية المحافظة على شعور غالبية المسلمين وإنصافهم.. لأنهم أكبر قوة حقيقية يحكم توجههم الطبيعي لأن يقولوا ألف «لا» للإرهاب بكل أشكاله في كل مكان من هذا العالم .

(الكاتب-الأهرام/١/٨/٢٠٠٥)

١٨ - «أزمة كوبنهاجن» والتعامل مع فخاخ «البرمجة العصبية»^١

نبدأ هنا بتحرير المصطلحين بالعنوان .. وهما: أولاً: المقصود بأزمة كوبنهاجن، وهى تلك الأزمة المتصاعدة التى دشتها تلك الرسوم المسيئة التى مثلت عذراً صارخاً على شعور المسلمين تجاه الرسول محمد ﷺ، والتى استدعت ردود أفعال عميقة من المسلمين عبر العالم. أما المصطلح الثانى فهو البرمجة اللغوية العصبية (NEURO - Linguistic Programing)، والكلمة الأولى تشير إلى أسلوب التفكير والسيطرة على الأعصاب وتوظيفها إيجابياً، أما الكلمة الثانية، وهى «اللغوية»، فهى المعبرة عن الإستراتيجيات اللغوية المعبرة عن أسلوب التفكير وعن الجهاز العصبى، أما الكلمة الثالثة وهى «البرمجة» فتشير إلى فعل القيام باستهداف أو تحقيق برنامج تفاعلى ما... أو تغيير برنامج برنامج آخر .. من هنا سنحاول - وبإيجاز - أن نطبق فكر «البرمجة اللغوية العصبية» وأدواتها لتحليل «أزمة كوبنهاجن» ... ومن هذا المنطلق نحدد البرامج التفاعلية لأطراف الأزمة وعناصرها، ثم نحدد بعد ذلك البرنامج التفاعلى المطلوب؛ لتدشينه وتحقيقه لكل من يحاول إدارة هذه الأزمة وحلها بأسلوب علمى أخلاقى وإسلامى. وفيما يلى عناصر ونقاط «برنامج» رد فعل المسلمين:

- ١- شن حملة مدنية شعبية لمقاطعة البضائع الدانيماركية.
- ٢- المطالبة بالاعتذار عن الإساءة البالغة الموجهة لشخص الرسول ﷺ .
- ٣- المطالبة بالكف عن مثل هذه الممارسات الموجهة لسيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين.
- ٤- المطالبة والسعى لاستصدار تشريع قانونى دولى يؤكد على تجريم السب أو الإساءة بأى شكل لرموز المعتقدات الدينية، وخاصة الإسلام الذى أصبح مستباحاً فى وسائل الإعلام الغربية وفى الكثير من السياقات الدولية المرفوضة.
- ٥- تحولت الجهود المدنية المشرعة فى الأربع نقاط إلى حالة من فقد الأعصاب والتحول إلى حرق عدد من سفارات الدانيمارك والنرويج فى عدد من الواصم العربية والإسلامية، وبدأنا نرى صور المثلثون... والرشاشات و«برنامج تفاعلى تحول إلى مشاهد من العنف».

وفيما يلى عناصر البرنامج التفاعلى للطرف الدانيماركى الذى استدعى رد الفعل:

- ١- نشر رسوم عن الرسول محمد ﷺ من قبل إحدى المجلات المعروفة، فى مسابقة لكى تصدر هذه الصور فى كتاب للأطفال لاحقاً... وجاء ذلك من وجهة

النظر الدانيماركية تحت «باب حرية التعبير»، وتجاهل هذا الفعل مبدأ توقيع الرسول محمد ﷺ وتوقيع كل الأنبياء والمرسلين في الإسلام..

٢- لم يعتذر القائمون على الصحيفة في بداية الأمر، ولم يقابل رئيس الوزراء الدانيماركي عدداً من وفود سفراء دول عربية إسلامية بخصوص هذا الأمر في بداية الأحداث، وبعد ظهور بعض ردود الأفعال الغاضبة في العالم العربي الإسلامي.. ولكن مع تطور الأحداث وزيادة تأثير ردود الفعل على مطبوعة البضائع الدانيماركية تم اللقاء مع الوفود وتم تقديم اعتذار غير واضح.. ثم اعتذار قوى وواضح يوم ٢٠٠٥/٢/٥ عما حدث، وإقرار بالخطأ في القيام بنشر تلك الرسوم الشائنة ووعده ألا يتكرر ذلك في المستقبل.

٣- وقف أي تهديدات من جانب المتطرفين في الدانيمارك، بمسيرة قد تردد الإعلان عنها في كوينهاجن «لحرق المصحف» على سبيل التصعيد المتطرف ثم تدخل الأمن الدانيماركي وهدد كل من سيحاول القيام بذلك، وهبت الجالية الإسلامية في الدانيمارك تجوب كل الميادين المحتملة للتصدي لمثل ذلك الفعل... ثم تم بعد ذلك.. ففي هذه «التهديدات».

٤- هناك بعض الآراء الدانيماركية والغربية التي لا تزال غير فاهمة أو واعية أو متفهمة لرد الفعل. نأتى في هذا الجزء من المقال إلى النقطة التالية والخاصة بفخاخ البرمجة اللغوية العصبية التي عكستها هذه الأزمة، ثم نقدم برنامجاً للعمل المستقبلي المطلوب.

يتضح من تحليل وقائع هذه الأزمة وتطوراتها أن الأربع نقاط الأولى المعبرة عن رد فعل المسلمين؛ كانت ذات نتائج إيجابية للغاية، ومن أهمها بعث الروح في هذه الأمة الكبيرة؛ والتصدي لعمليات استباحة الإسلام ورموز الإسلام - ليس فقط كما حدث في كوينهاجن، ولكن ينبغي أن يمتد ذلك إلى أى مكان في العالم.. ولكن النقطة الخامسة التي ذكرناها في البرنامج التفاعلي للمسلمين، والخاصة بالحرق والعنف؛ لم تكن سليمة ولا تخدم قوة الحجج وإقامة الحجج التي نجح قطاع كبير من المسلمين في تقديمها بالأسلوب السلمى الحوارى الراقى، الذى يكون العائد منه أكثر بكثير من الانزلاق إلى منزلقة العنف والحرق والتدمير.. بل إن العنف يفقدنا الصورة التي غضبنا من أجل تصحيحها، وبالتالي فإن البرنامج المستقبلي التفاعلي المطلوب يتمثل في الآتي:

(١) توضيح العملية المعقدة والمركبة، التي تتسم بها عمليات التواصل عبر الثقافات والقيم وأولوياتها لدى الشعوب المختلفة.. وهذا يحتاج إلى متخصصين في

هذا المجال المفتقد بشكل كبير في كل من العالمين العربي الإسلامي والغرب، خاصة إذا دخل الدين كمنكون تفاعلي رئيسي في حدث ما، وهذا سيحتاج إلى سياق تفصيلي آخر..

(٢) توضيح خطورة «البرنامج اللغوي العصبي» الذي يطوره ويدعمه المتطرفون والمنغلقون والجاهلون في الغرب أولاً، وفي العالم العربي الإسلامي ثانياً... وهذا «البرنامج» هو المتمثل في «زرع مفهوم الصدام الحضاري» وتعميقه حينما تتوفر أي فرصة لذلك... وهذا البرنامج يتطلب وقفه بمفعول دعم برنامج حوار الثقافات والحضارات، من خلال قوة عمل دولية كبيرة من الباحثين والسياسيين والإعلاميين والدبلوماسيين الحريصين على سلامة واستقرار هذا العالم... وهذا البرنامج ينبغي أن يكون استباقياً.. وليس كرد فعل فقط.

(٣) مهمة توصيل رسالة الدين الإيجابية... بمعنى أن معظم الغربيين في حضارتهم قد انقلبوا على مفهوم الدين، الذي ارتبط بتسلط رجال الدين في الغرب، وأن الإصلاح في ذلك الغرب ارتبط بمقاومة الدين وتحيته جانباً... وهذا الفهم لا ينطبق مع رؤية المسلمين ووقائع تاريخية مختلفة عن السياق التاريخي الغربي.. من هنا اقترح أن نتبنى ذلك «البرنامج التفاعلي» الذي قدم له الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر، والذي ينادى بالتركيز على الجانب الإيجابي للأديان واستبداله بالبرنامج القائم اليوم في العلاقات الدولية على مبدأ «الاختزال العلماني» «Secular Reductionism» الذي يرى كارتر وعدد من الباحثين المحددين في العلاقات الدولية أنه برنامج قد أدى وسيؤدي إلى أزمات دولية عديدة في المستقبل وينبغي إلغاؤه واستبداله.

(٤) أهمية الوصول إلى أرضية مشتركة دولية فيما يتعلق «بحرية التعبير» والإساءة للآخرين، خاصة لمعتقداتهم.. ولقد خضت في هذا الأمر المركب بالتفصيل في سياقات عبر ثقافية ومنها ما يتعلق بملف التفاعل في الغرب حول رواية «آيات شيطانية»، واثرك موجز عناصر منطق الحوار في هذا السياق قال كنت كتبت في الإعلام الغربي منذ سنوات بعنوان «على الغرب ألا يقع في فخ رشدي» (جريدة الهوى ٨٩/٢/٢٨) وسأعود بتفاصيل منطق الحوار مع الغرب في هذه الجزئية التي لا تزال تتردد من ملف إلى آخر وتحتاج إلى تفاصيل.

(٥) أن نتبنى في العالم العربي الإسلامي تلك الصخوة لمقاطعة كل أشكال الظلم والعدوان ولكن من خلال البرنامج التفاعلي الإسلامي المنضبط والمندرج والمتمثل في القواعد التالية:

* «الضرر لا يزال بضرر أكبر منه» و«لا ضرر ولا ضرار» ، العقاب الجماعي لا يقره الإسلام .. يذكرنا الحق سبحانه وتعالى بالمنطلقات التالية فى أواخر سورة النحل:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦)

والمعنى هنا هو التدرج وعدم التسرع الذى يتيح فرصة للخصم لكى يتراجع ..

* «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) .

أى أن العبرة هنا فى إظهار قوة الرد وقوة الاحتواء المتدرج المتميزة بالتفاعل بإيقاع واثق لا تجزع فيه مما يمكرون .. هذا وبالله التوفيق .

١٩ - «الدعاة» و «الخلاف» حول «الازمة الدنماركية» ١

أفرزت ما يمكن تسميته «بالملف أو الأزمة الدنماركية» العديد من ردود الفعل المحلية والدولية، وتحدثنا عن هذه الأزمة الممتدة في سلسلة مقالات على هه الصفحة، ونستكمل هنا هذه السلسلة بتقديم تحليل ومناقشة لنقطة خلافية تظهر واضحة هذه الأيام في سعى وحماسة الفيورين على القيام بإدارة جماعية لهذه الأزمة .. وهذه النقطة لخلافية تتمثل في اعتراض بعض الدعاة الأفاضل مثل الشيخ القرضاوى والشيخ خالد الجندى وغيرهما على ذهاب وفد الداعية المعروف عمرو خالد ومعه نفر ما أسماه عمرو خالد «بسفراء للإسلام» ليقدّم سلسلة من اللقات تحت عنوان «هذا نبينا» .. والنقاط المحددة موضع الاعتراض من المعارضين تمثل بوضوح فى الآتى :

- ١ - ان توقيب الحوار خطأ .. وأنه يحيط أو يضعف الأثر القوى الذى أحدثته هبة المسلمين القوية تجاه الرسوم الشائنة التى وجهت لسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ.
- ٢ - يرى المعارضون أن حوار عمرو خالد بلا آلية وليس ممنهجاً حسب تعبيرهم .
- ٣ - أنه لا بد أن يسبق أى حوار من هذا النوع إعتذار رسمى واضح من الدنمارك، وخطوات تعبر عن هذا الاعتذار .
- ٤ - أن الحوار لا يدور بين طرفين متكافئين ولا بد من التكافؤ قبل الدخول فى الحوار .

٥ - أن الحوار لا بد وأن يدار من جهة كبيرة لتوحيد الجهود مثل الأزهر الشريف «لهذه النقطة تفضل بها الشيخ خالد الجندى خاصة فى طرحه فى برنامج يديره الإعلامى جمال عنایت على شبكة أوربيت» .

بخصوص توقيت الحوار وأنه توقيت خاطئ وما صاحب ذلك من مفردات لا تخدم أى حوار بوصف م يقوم بالحوار «سواء الداعية عمرو خالد» بأنه يحبط الحوار وبعض المشاركات فى هذا الحوار وصفت الفعل «بالانبطاح» .. وهنا لا بد أن نؤكد أن علينا جميعاً فى حواراتنا أن نتجنب ما نسميه فى لغويات الحوار والتفاوض «بأخلاقيات الوصم» السلبية، خاصة ونحن نحاول استكشاف أى أسلوب أو أى توجه هو الأفضل للصالح العام، خاصة أن كل المتحدثين من الدعاة الأفاضل .. خاصة أن حوار مثل الذى يعنى للدخول المباشر والسريع فيه الداعية عمرو خالد وغيره من الدعاة أو المعنيين قد يكون هو الخطوة الصحيحة والمطلوبة .. خاصة أن الإيقاع البطئ جداً الذى سيؤدى إليه إعتراض المعارضين يفقدنا شيئاً مهماً وهو «استغلال زمن الاستماع والإصغاء» ..

وزمن الإصغاء الذى لابد أن نستغله بسرعة ولياقة ذهنية وحركية يتمثل فى وجود عوامل عديدة متاحة وقد لا تكون متاحة عند «التسحلف» المعتاد.. وهذه العوامل التى أرى أنه قد توافر لها الحد الأدنى المعقول تتمثل فى الآتى :

أ - ان الجريدة الدنماركية قد اعتذرت إعتذاراً واضحاً وأكثر من مرة وتعهدت بالإعتراف بالخطأ والإعتذار بطريقتهم .. ولكن كان هناك إعتذار حسن وإن لم يكن بالمستوى المطلوب .

ب - ان الوفود قد توافدت وحضر مؤخراً إلى القاهرة وفد دنماركى كبير وعلى مستوى عال من الكنيسة الإنجيلية اللوثرية وقابل القيادات الدينية المتمثلة فى فضيلة شيخ الأزهر الشريف وفضيلة مفتى الديار المصرية د. على جمعة .. جاء هذا الوفد ليقدم إعتذاره بكل وضوح وقوة للجميع وحين التقيت بأعضاء هذا الوفد الذى دار مع حوار مطول فى منتدى حوار الثقافات بالهيئة الإنجيلية المصرية ذكر القس نيسلن وهو سكرتير عام الارسالية الدنماركية أن ما حدث كان خطأ كبيراً على المستوى الدنماركى وكانت هناك أخطاء للحكومة بالطبع فى إدارة تلك الأزمة ولكن نحن بحاجة ماسة للحوار مع العالم العربى الإسلامى .. لأننا أصبحنا فى حوار دنماركى داخلى قوى .. أقول لكم لأن ما حدث قد أوقفنا وجعلنا نتأمل ونقيم الأخطاء التى وقعنا فيها وأنها لم تكن على صواب فى إدارة علاقاتنا مع الجاليات داخل الدنمارك ومنها الجالية المسلمة هناك ولابد لنا من تصحيح ذلك .. وقال القس نلسن .. انه قد أسعده كثيراً وتأثر بعمق من اللقاءات التى ذهب واستمع فيها إلى القيادات الدينية وما ذكره كل من فضيلة شيخ الأزهر وفضيلة المفتى حول أهمية وحيوية الحوار الذى يمثل جوهر الفكر والعقيدة الإسلامية .. ما المشكلة فى الحوار الذى يتطلب منا جميعاً بأن «ننفر خفافاً وثقالاً» و «نحاول بالتى هى أحسن» وأن نطالب بما نراه من حقوق وخطوات مطلوبة .

ان الشئ الغريب حقاً ولا يمكن قبوله هو وجود حالة من «القصور النفسى» لدى البعض ممن يطالبون بأن يكون الحوار متكافئاً.. الأمر عجيب حقاً فقد يكون ذلك كلاماً معقولاً فى مفاوضات الجات أو فى بعض الملفات الخرى ولو أن هناك أسلوباً علمياً لإدارة المفاوضات غير المتكافئة ولكنه مستهجن عندا يكون بين مثقف أو داعية ينتمى للعالم العربى الإسلامى وأى طرف فى الدنيا .. اعتقد أننا نملك الكفاءة ونملك زرع التكافؤ بإرادتنا الحرة وقدراتنا العالية .. وفى الملف الدنماركى.. الدنماركيون المعتذرون يطلبون أن يفهموا عن الإسلام وجاءوا إلى هنا يطالبون بكل أدب وروح طيبة أن نجرى الحوار .. أليس من خلال هذا يمكننا استغلال فترة

الإصغاء بعد صدمتهم التي اعتبر التفريط في هذه اللحظة هو عكس كل جهد دعوى أو دبلوماسي إيجابي .. أما القول بعدم وجود آلية منهجية لإدارة الحوار فالسؤال هنا : وما الذي يمنع وجودها ؟ .. ولماذا ؟ إن علينا أن نحسن الظن ببعضنا البعض .. ان أى جهد من أى طرف يعنى الإسلام ويعرف أن يبلغ عن النبي ﷺ ولو آية .. فهو يجرى من ذلك إن شاء الله ولا يضر أحد ولا يضر أى «منهجيات كبرى» أخرى .. إذا حدثت .. أما دعوة الشيخ خالد الجندى لأن يقود الأزهر الحوار .. فنحن نضم صوتنا لصوته .

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/٣/٩)

٢٠ - حوار سفراء الغرب فى القاهرة

فى لقاء عبر ثقافى استضافته ساقية الصاوى، ذلك المكان الذى يتسم بروح الديناميكية والحراك والنشأ الثقافى البناء، اجتمع فى ١٥ أبريل ٢٠٠٦ «السبت الماضى» عدد من السفراء ورجال السلك الدبلوماسى والإعلام والمفكرين وأساتذة الجامعات وعدد كبير من الشباب من الجامعات وجمعيات المجتمع المدنى . ليسجلوا ما اعتبره أول لقاء من نوعه لأسباب متعددة هى :

١ - ان لقاء يقول كفانا ذلك الحديث الذى نتحدث فيه عن الغرب مع أنفسنا دون وجود أى من يمثل الغرب .

٢ - انه لقاء ليس فى غرفة مغلقة كالعادة عندما يتعلق بسفراء الدول الأجنبية.. بل كان لقاءً مفتوحاً لكل من أراد الحضور والمشاركة.. فلقد كانت الدعوة عامة.

٣ - انه لقاء عن موضوع مهم لتعلم دروس الأزمات السابقة وفتح صفحة تفاعلية - جمعيات يشارك الجميع فى صياغتها فى موضوع «حرية التعبير واحترام الآخر...» .

كان المتحدثون على وجه الترتيب هم كلمة المهندس محمد الصاوى مؤسس ذلك المكان المتميز ليرحب بالموضوع والحضور معاً، والوزير أحمد ماهر - وزير الخارجية السابق - والسفير البريطانى السير ديريك بلمبلى والسفير النرويجى لا سيم والسفير الهولندى ديزوان والسفير البحرينى إبراهيم الزوى ودكورنليس هولسمان الهولندى ومدير مركز التقارب العربى الغربى - الذى مثل هذا اللقاء الافتتاح الأول لهذا المركز المستجد.. ولقد تشرفت بأن أكون مديراً للحوار فى ذلك المسار الذى سعد به الجميع - بفضل من الله - ولقد تم الإعداد والتحضير لهذا اللقاء من خلال بحثين أحدهما لكاتب السطور وجاء بعنوان «إدارة الأزمات المتسمة بإجراء الانفعالات فى سياق الفجوة التواصلية الممتدة بين العالم العربى الإسلامى والغرب : تحليل أطر الإدراك المتباين لأزمة الرسوم الدنماركية كمثال» .

وجاءت هذه الدراسة من منظور لغويات التفاوض والبرمجة اللغوية العصبية والقيم الإسلامية العالمية.

أما البحث الثانى فكان للدكتور الهولندى كورنليس هولسمان وجاء بعنوان «خطاب الاستقطابات الحادة» دراسة للمناقشة .

ولقد علق المتحدثون على هذين البحثين فى أثناء الإجابة عن الأسئلة التى طرحتها عليهم فى بداية اللقاء وهى من واقع البحث الذى كتبه وحاولت أن أرصد

فيه طبيعة الفجوة التواصلية الممتدة بين العالم العربي والعالم الإسلامي.. وهذه الأسئلة هي أسئلة أنية ومستقبلية معاً، ويتعين الإجابة العلمية عبر الثقافية عنها وكذلك تحويل هذه الإجابات إلى أجندة من العمل المشترك لعبور فجوة أو فجوات التواصل الراهنة وهذه الأسئلة بإيجاز هي :

١ - ماذا عن طبيعة الأزمة الممتدة بين العالم العربي الإسلامي والغربي وكيف نوصفها ؟ وكيف ينبغي أن تدار ؟ وما موقع أزمة الرسوم منها «كأزمة ذات طبيعة خاصة - جاءت لتعبر عن ذروة اصطدامية في الذكر والقيم الثقافية المتباينة إلى حد بعيد ؟ وما السبيل لإدارة ما تبقى من هذه الأزمة وما السبيل لمنع تكرارها ؟

٢ - من اللذي ينبغي أن يدير مثل هذه الأزمات ؟ وماذا عن مفهوم وفكرة الإدارة الجامعية المنظمة لمثل هذه الأزمات .

ففي الأزمة الأخيرة «أزمة الرسوم الشائنة» كان موقع كل من الدبلوماسيين وصناعي القرار في العالم وخبراء إدارة الأزمات في موقع متأخر للغاية حيث تمت إدارة هذه الأزمة من قبل «حفنة من رجال الإعلام من أصحاب الوصول السريع للملايين عبر العالم وكان معهم في بوتقة إدارة تلك الأزمة عدد كبير من الدعاة».. وتحولت تلك الأزمة إلى استقطابات حادة بين الإعلاميين وبعضهم البعض وبين الدعاة وبينهم البعض.. والمحصلة كانت تشنجاً وغضباً وآراء متضاربة لم ينتج عنها أي إدارة علمية ومنهجية للأزمة.. مما يجعل إمكانية حدوثها بشكل أو بآخر وارد في ظل غياب الخبراء وصانعي القرار والدبلوماسية الوقائية الاستباقية العادلة والمتصفة، وليست المتسلطة أو التي تدار لصالح طرف على حساب الآخر.. أو تلك التي تدار بأسلوب الاستعلاء والتهوين .

والأسئلة هي :

٣ - ماذا عن فجوة الفهم المتباين لحرية التعبير ومعادلة فهم هذه الحرية في إطار المسؤولية ؟

٤ - ما السبيل لإعلام أزمات من هذا النوع. يحتاج إلى تدريب عناصر وتثقيفها في كل من الغرب والعالم العربي الإسلامي ؟

٥ - كيف يمكن إعداد الدعاة المؤهلين لفهم التفاعلات عبر الثقافية المعقدة ؟

٦ - كيف يتم التعامل مع المناهج الدراسية بشكل إيجابي في كل من العالم العربي والغربي إذا أردنا استباق ومنع الأزمات عموماً والثقافة خاصة ؟

- ٧ - ماذا عن مفهوم «اليد الخفية» ونظرية المؤامرة والتعامل مع هذا البعد فى العلاقات الدولية بشكل إيجابى ؟
- ٨ - كيف يمكننا السيطرة على الغضب والانفعالات فى أجواء الأزمات وتحويل الغضب إلى طريق إيجابى للتفاعل ؟
- ٩ - ماذا عن السياق الأشمل والصعب للأزمات الممتدة بين العالم العربى والإسلامى والغرب فى سياق احتلال جيوش خارجية لأراض من العالم العربى الإسلامى .. وكيف ؟
- يعتبر هذا العامل من التوامل المؤثرة للغاية على أى حوار ؟ وعلى علميتى بناء أو هدم جسور الحوار بين العرب والغرب ؟
- كانت هذه مجموعة الأسئلة المتداخلة والمشكلة لرحم تفاعلات الأزمة الممتدة (CRISIS MATRIX).. وهى الأسئلة التى تعامل مع بعضها المتحدثون فى ذلك اللقاء المهم.. والذى كان مهماً لفتح حوار ممتد بخصوص هذه الأسئلة المركبة التى بدون الاستقرار على أجوبة لها ولو على المدى البعيد فلن يكون هناك حوار منهجى ومتراكم .
- وهنا نقول بأن هذا اللقاء وغيره سيكون بمثابة خطوة أو خطوتين إيجابيتين فى طريق الألف ميل الذى ينبغى لنا أن نسير فيه لصلح - هذا العالم أجمع .
- ولعنا نرصد هنا أهم ما تحقق من هذا اللقاء من منطلقات إيجابية وهو الآتى :
- ١ - أجمع المتحدثون على أهمية الاستمرار للسعى فى الحوار بين العالم العربى الإسلامى والغرب على أساس من الاحترام المتبادل .
 - ٢ - أكد الجميع خاصة السفير البريطانى على أهمية احترام التعدد واسترجع مقتطفات من محاضرة الأمير تشارلز المتميزة والتى ألقاه فى جامعة الأزهر التى تؤكد على احترام العقائد والأديان .
 - ٣ - أثار السفير النرويجى مفهوم «الإسلام الأوروبى» (EWRO ISLAM) قاصداً بذلك المسلمين فى الغرب وأهمية إدارة معادلات تفاعلية خاصة بالاندماج مع إحترام خصوصيتهم الدينية «وسنعود لهذا الموضوع فى مقال آخر» .
 - ٤ - أثار سفير البحرين خليل إبراهيم أهمية سن التشريعات الداخلية والدولية المتفق على أساسها فى كل من العالم العربى والغرب بما يحقق احترام حرية التعبير .
 - ٥ - يرى السفير الهولندى ديزوان أهمية الجوار والمزيد منه لمزيد من النهم المتبادل للثقافات خاصة فيما يتعلق بالإدراك المتباين .

٦ - ركز كورنليس فولسيما على أهمية تدريب الإعلاميين ووجود مراقبة إيجابية للتحقق من صحة المعلومات وعدم إخراج الرسائل الإعلامية عن السياق الثقافي والمهني بين الغرب والعالم الإسلامي .

٧ - أما الوزير أحمد ماهر فكانت مساهمته مستفيضة في أهمية تأسيس معادلة لاحترام كل من حرية الرأي واحترام الآخرين كما تطرق للسياق الأشمل للأزمات مع الغرب في ظل المشكلتين العراقية والصراع العربي الإسرائيلي وأهمية حل مثل هذه الصراعات بأسلوب عادل.. هذا وللحديث بقية والله ولي التوفيق .

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/٤/٢٠)

٢١ - «الإسلام الأوربي» وحوار السفراء بالقاهرة

نستألف ما قدمناه في المقال السابق «٢٠٠٦/٤/٢٠» عن حوار عدد من سفراء الغرب في القاهرة، وهو ذلك الحوار البناء الذي دارت وقائعه بين ممثلي دبلوماسية المسار الأول الرسمية المتمثلة في المتحدثين وهم سفراء بريطانيا والنرويج وهولندا والبحرين ووزير الخارجية السابق أحمد ماهر وعدد آخر من السفراء الذين حضروا اللقاء وبين ممثلي دبلوماسية المسار الثاني

Tvack2 Diplomacy أو الدبلوماسية الشعبية المتمثلة في الإعلاميين والأكاديميين والمفكرين وعدد من طلاب الجامعات المصرية وممثلي المجتمع المدني .

وسوف أوقف بشئ من التفصيل عند بعض الموضوعات التي أرى أهمية تقديم رؤية تحليلية لها لأهميتها ولحاجة التعمق الممتد مستقبلاً بخصوصها لإحداث التراكم المنهجي لعبور فجوات التواصل الممتدة بين العالم الرببي الإسلامي والغرب.. وسأركز هنا على ما يلي :

(أ) سؤال من الحاضرين للسفير النرويجي ذكرتم سيادتكم تعبير «الإسلام الأوربي» Euro Islam وتحدثتم عنه بشكل إيجابي .. ولكننا نريد فهماً أعمق لهذا المفهوم المستجد والغامض بعض الشيء بالنسبة لنا ؟

هنا نتحدث السفير النرويجي قائلاً : أنه لا يد لنا في أوروبا من أن نعطي أولوية التواصل مع مسلمي أوروبا لأنهم يعيشون معنا يومياً على الساحة في أوروبا وفي النرويج يمثلون ٢ ٪ من السكان، وعلى سبيل المثال كان لابد من إزالة التوتر الذي حدث مؤخراً بخصوص «الرسوم الدنماركية» التي أثارت غضب المسلمين .. وهنا أقول أن المقصود «بالإسلام الأوربي» هو فهم الإسلام في سياقه الأوربي، بمعنى أننا مثلاً في أزمة الرسوم دار نقاش كانت أركانه تنصب على حجتين رئيسيتين هما «أ» كيف يؤكد احترام حرية التعبير كحق إنساني أساسي في أوروبا من شأنه البحث عن الحقائق وله تعقيداته.. ووجهة النظر هنا «أن هذا البحث يجعل أمانات كل شيء قابلاً للمناقشة والنقد ولكن أؤكد على الحجة الثانية .

(ب) هي أن هذه الممارسة ينبغي أن يكون لها أصولها وقواعدها بحيث لا تكون هناك إساءة لأحد أو لجماعة أو عقيدة وعندنا من القوانين المحلية في النرويج ما يجرم مرتكبي أفعال التشهير Detamation والسب والقذف Libel/slander وكذلك هناك قانون خاص بمعاينة من يزدرى الأديان.. وبخصوص «الإسلام الأوربي» في هذا السياق أو غيره.. فإننا نهدف إلى تنظيم العلاقة بين الحكومة والمواطنين

المسلمين، ولذلك فإن هناك من يمثل المواطنين المسلمين أمام الحكومة النرويجية، مثلها في ذلك مثل العديد من الدول الأوروبية.. وما نسعى له من خلال التواصل المنظم هنا هو توضيح حقيقة أن المجتمع النرويجي والأوروبي عموماً هو مجتمع يعيش حالة من «العلمانية» الشديدة وهنا كل شيء قابل للمناقشة والنقد في إطار الأصول المنوه إليها.. ومن هنا وبسبب هذا الحوار المنظم استطعنا إزالة التوتر الناتج عن أزمة الرسوم، والقاعدة هنا أن التعامل المستمر مع جميع القضايا من خلال الحكومة ومثلي المواطنين المسلمين في النرويج.. من هنا فإن السفير النرويجي قد أجاب عن المقصود «بالإسلام الأوروبي» وتعلقنا لمزيد من النقاش المستقبلي يتمثل في التساؤلات التالية :

(١) لا يزال مفهوم «الإسلام الأوروبي» غامضاً في بعض جوانبه.. وكما جاء في طرفه بخصوص هذا الأمر من خلال هذا السؤال: هل من علاقة بين مصطلحي «الإسلام الأوروبي» Euro-Islam مصطلح مثل «البترودولار» الشهير dollar-Petro وربما تنشأ عملية إسلامية أوروبية جديدة يمكن صرفها لمزيد من التعاون الاقتصادي بين العالم العربي الإسلامي والغرب ؟

(٢) إلى أي مدى ترتبط عملية (إندماج المسلمين) في المجتمعات أوروبية التي يعيشون فيها بالعلاقة بين أوروبا والعالم العربي الإسلامي؟ وما مواصفات الدور الذي ينبغي أن يلعبه كل طرف في هذا الموضوع المهم بأسلوب مقبول من الجميع؟ وما المقصود «الإندماج» INTEGRATION؟ وهنا من يسأل البعض: أليس من حقوق الإنسان (الإندماج) من (عدمه) خاصة إذا كان في هذا ما يؤثر سلباً على الخصوصية الثقافية في سياقات بعينها؟ ما هي إذن معايير هذا «الإندماج» ومتطلباته خاصة من منظور حقوق الإنسان؟

كل هذه الأسئلة هي أسئلة مركبة ولا بد من الاستمرار في محاولة الإجابة عليها.. مستقبلاً لكل من يسعى لعبور الفجوات الراهنة بين العالم العربي الإسلامي والغرب.. بل ولكل من يسعى للتعامل إيجابياً مع موضوع الإسلام والمسلمين في أوروبا وفي الغرب عموماً .

(٣) ماذا عن مسألة استصدار قانون دولي يمنع الإساءة لمعتقدات الآخرين ؟ لا شك أن هذا السؤال لا يزال محورياً ولا يزال على أجندة دول العالم العربي الإسلامي من حيث التأكيد على عدم المساس بالمقدسات والعقائد بشكل واضح، بلا غموض أو انفلتات ؟

ولقد تعامل السفير البريطاني السير ديريك بلمبلي مع هذا السؤال، وذكر أنه وبالرغم من مشروعية هذا الطلب الذي يوجد له أساس في كل القوانين المحلية

الأوروبية، إلا أنه من الصعب استصداره على المستوى الدولي ودلل على ذلك بأنه يوجد مشروع قانون جديد فى بريطانيا يجرم الكراهية للأديان وازدراؤها.. ولكنه لا يزال يواجه صعوبات كبيرة فى استصداره وتفسيراته .. وإذا كان هذا هو الحال فى بلد كبريطانيا فإن استصداره دولياً سيواجه صعوبات كبيرة.. هذا مع الموافقة الضمنية للسعى فى هذا الاتجاه .

ومن هذا لابد من أن نضع مجموعة من الأسئلة للبحث والنقاش المستقبلى تتمثل فى الآتى :

(١) أن معظم القوانين المحلية الأوروبية.. عندما تجرم ازدراء الأديان فهى تجرم ازدراء المسيحية فقط وفى هذا خلل كبير ومعايير مزدوجة أيضاً .. فكيف - على الأقل - لهذه القوانين التى هى فى الحقيقة ونظراً للحالة العلمانية الأوروبية تكاد لا تنفذ تماماً أى على الرف.. ولكن ما السبيل لكى يشعر المواطن الأوروبى المسلم - وبالتالي الشعور العام للمسلمين بالحماية المحلية القانونية لحق عدم الإساءة إليه ؟

هذا سؤال لا يزال محورياً وللحديث بقية والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان .

(الكاتب-الأخبار ٢٧/٤/٢٠٠٦)

٢٢ - «الخصخصة» وصورة «العدو الاقتصادي»!

الدراسات العلمية التي تناولت مسألة «صورة العدو» أيًا كان هذا «العدو» - تعتبر من الدراسات الآخذة في النمو.. وهي دراسات انطلق من واقع ممارسات دولية كتيبة .. فصورة «العدو السياسى» معروفة وتجدها فى كثير من الخطابات السياسية لزعماء كثيرين فى العالم عندما تكون دولهم فى حالة حرب أو صراع حاد مع عدو ما» .

وهنا نجد الجدة فى أوصاف هذا «العدو» أو ذاك «وفى هذا الخطاب السياسى أو ذاك، فمعظم خطابات الرؤساء الأمريكيين أيام الحرب الباردة انتهالت على الاتحاد السوفيتى السابق بكل صور العدو التى تنفر منه «كالعدو الأحمر الدموى» الذى تنطبق عليه صور «القهر» و «الديكتاتورية» و «الستالينية» و «قتل حقوق الإنسان» إلخ... ولكننا تعلمن ماذا حدث بعد إنتهاء دور «الاتحاد السوفيتى» السابق وإنهياره ووجود العالم فى حالة من أحادية القطب الأوحده بعد أن كان عالمًا ثنائي القطبية.. ولكن يبدو أن فكرة تصنيع العدو صناعة الخوف من ذلك العدو (ENEMY MANUFACTURING) هى فكرة ليست سياسية فقط اليوم بل هى فكرة سلبية جدًا من الناحية «الثقافية» و «الاقتصادية» ... فعلى الصعيد الثقافى، انتقلت الدراسات التى تتحدث بل وتهندس لاستهداف عدو من السياسة إلى الثقافة فوجدنا عدد متدفق من الصور والمصطلحات المصاحبة للإسلام والمسلمين «كعدو جديد» فوجدنا مصطلحات «كالعدو الأخضر» آراء الخطر الأخضر «والفاشية الإسلامية (ISLAMO FASCISM) و «الحل النهائى» أى ضرب ولول اقتضى الأمر ثلث العالم الإسلامى ودوله كحل نهائى للخلاص من «الشمولية» و «قهر حقوق الإنسان» وعدد كبير من المصطلحات التى تهيب لحرب عالمية وصدام حضارات كبير.. وهذا ما وصلت الأمور فيه إلى ذروة بالرسومات الشائكة المعروفة والمشيقة لمن قاموا بها أساسًا.. وإذا كانت هذه الممارسات قد تم تناولها فى دراسات ومقالات إلا أن الجديد والغريب هو تدريس كورسات فى جامعات دولية مرموقة تحت كورسات «تسمى كورسات» «الحرب التقاصرية» و«استخبارات الاقتصاد» إلى ما ذلك من مسميات توضح إتجاه العالم نحو الصراع الحاد بدلاً من ترشيد مثل تلك الصراعات وبناء علاقات سياسية وثقافية واقتصادية سوية تعتمد مبدأ «فليكسب الجميع» .. وهو مبدأ لا يزال يدافع عنه كل العقلاء فى العالم لأنه الأبقى والأصلح للعالم أجمع.. ولكن ما يهمنا فى هذا المقال هو أن تسلط الضوء على إرتباط «صورة العدو» السياسى والتاريخى والثقافى والاقتصادى فى حالات بعينها.. من هذا أسلط الضوء

على موضوع لم يأخذ حقه في أعلامنا العربي بالقدر الكافي، وهو إنسحاب شركة موانئ دبي من عرضها لشراء حصص من شركات أخرى لإدارة عدد من الموانئ الأمريكية بعد أن تعرضت محاولات الشركة للاستثمار في الولايات المتحدة لاعتراضات صارخة من الكونغرس الأمريكي.. وعلى الرغم من الصورة الاقتصادية والمهنية الدولية الرفيعة لشركة الموانئ الاماراتية، وهو الأمر، الذي يشرف كل عربي بعد كل تلك الصور الهزلية التي يراد بها إغتيال الشخصية العربية والإسلامية معنويًا في الاعلام الغربي عمومًا، إلا أن الصورة التي غلبت على كل الدلائل هي صورة العرب والمسلمين السلبية في الولايات المتحدة والغرب، وعلى الرغم من إعتراضات الرئيس الأسبق كلينتون وحتى الرئيس بوش على التصورات الخاطئة عن هذه الشركة الدولية العربية العملاقة، إلا أن المخاوف كانت أعمق بسبب تعمق وتجزؤ الصورة الذهنية السلبية التي زرعها الإعلام عن العرب والمسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر بطريقة متجاوزة لكل الأعراق والقيم.. مما جعل صورة العدو هذه المرة تأخذ شكلها الاقتصادي، وعمومًا فإن هذا الحدث الذي مر مرور الكرام في اعلامنا العربي إلا أنه لمن يمر كذلك في الاعلام الغربي، فلقد تم من خلاله فتح موضوع الاستثمار والخصخصة وبيع الشركات في الواقع الأمريكي، كما فتح مؤخرًا في واقعنا المصري وهو ما سوف أتناوله في مقالات قادمة بإذن الله - ولكن أود أن أرصد هنا ملاحظات مهمة لتأمل الخصخصة والبيع في أمريكا وهي :

١ - النقطة الرئيسية هي «لمن تبيع ١٩» .. فلم تكن شركة دبي فقط هي موضع التحفظ ولكن يوضح اللف هنا أن التحفظ أو الاشتباك كان من قبل على «اليابانيين حينما تمكنوا من شراء مركز روكفلر للتجارة، وفي الصيف الماضي قامت الدنيا ولم تقعد بمجرد محاولات قيام شركة البترول الصينية، لشراء «شركة النفط الأمريكية» وهو الأمر الذي أثار حفيظة «الوطنيين الأمريكيين» وتصوريهم لمجرد محاولة الشراء على أنها تكاد محاولة عدائية ضد أمريكا وإنتهاكا لحرمانها ولقد كان من شأن هذه العاطفة الافتراضية الشديدة أن أجبرت الشركة الصينية على الإنسحاب والتراجع عن محاولة الشراء، وكأنها طائرات مغيرة أجبرت على الفرار ذعرًا من شدة المقاومة وتم الحفاظ على الشركة الوطنية الأمريكية للنفظ .

٢ - الموضوع للأمريكيين في مسألة البيع هو لا وألف لا .. لأي مكان استراتيجي .. أي مكان ينتج سلعة استراتيجية، لا لبيع أو خصخصة منشأة للطاعة ولا لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات، ولا لمنشآت المياه كل هذه يطلقون عليها مصطلح . البنية التحتية الحرجة (CRITICAL INFRASTRUCTURE) .

٣ - أن الأمريكيين الذين يخافون على حريتهم وقوتهم الاقتصادية يرفعون اليوم

شعار - العاطفة الحمائية PROTECTIO NIST Gentiment .. ويقولون لا بأس حتى وإن أثر ذلك على العملة الاقتصادية وقيادة أمريكا «للاقتصاد الحر» .

٤ - الأمريكيين يقدرّون الاستثمار الأمن وهو كل ما بدر تلوبيونات بعيداً عن الأمور الاستراتيجية والبنية التحتية الحرجة.. فالاقتصاد الحر عندهم هو أن يكونوا أحراراً في أن يفعلوا ما في صالح بلدهم.. وللحديث بقية .

وكان الله في عوننا .

(الكاتب-الأخبار ١٣/٤/٢٠٠٦)

٢٣ - حوار مع رئيس الوزراء الهولندي السابق

حضر إلى مصر مؤخراً البروفيسور فان آخت رئيس الوزراء الهولندي السابق بهدف الافتتاح الأولي لمركز التقارب بين العرب والغرب الذي تحسّر لفكرته ورأى ومعه حشد من الشخصيات العامة المصرية فى أهمية أن يكون له دور إيجابى فى عبور الفجوة الكبيرة بين العالم العربى الإسلامى والغرب والقائمة اليوم والتي تحتاج إلى جهود كبيرة لاحتوائها ومنع تفاقمها والسعى لعبورها لآفاق أفضل.. ولا شك أن هذا سعى حميد إلا أننا ونظراً للمستجدات المتلاحقة التي أرى أنه لم يتعلم المتسبون فيها من دروس الماضى، إننا بحاجة إلى عشرات المراكز من هذا النوع - على أن تقوم بهذه المهمة بحرفية ومهنية وهدف واضح لا تحيد عنه أو أن تسقط فى فخاخ بعيدة من ذلك الهدف السامى وهذه مهمة كبيرة وشاقة وتحتاج إلى تكاتف كل الجهود المخلصة .

لم تكن زيارة رئيس الوزراء السابق فقط لكى يضغط على زرار فى جهاز الكمبيوتر من ساقية الصاوى التي استقبلته ومعه عدد من الشخصيات العامة المصرية لكى يفتح موقع مركز التقارب العربى الغربى أو أن يبدش المرحلة الأولى من هذا الافتتاح إلى أن تستكمل باقى الجهود المتطلبات اللازمة ولكن قام السيد فان آخت بإلقاء محاضرات مهمة فى كل من جامعة القاهرة - بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وبالجامعة الأمريكية كما كان له لقاءات وحوارات مع أطراف كثيرة معنية بمهمته حيث التقى بالقيادات الدينية فى مصر وبوزير الخارجية السيد أحمد أبو الغيط وبآخرين.. ولقد كان لى وفى اللحظات الأخيرة من زيارته حوار معه رتب له الدكتور هونسمان كورن ليوسى الصحفى الهولندى المعروف ومدير مركز التقارب بين العرب والغرب.. وكان ذلك مقيداً للتعرف على أهم دلالات زيارته وآرائه التي وجدت الكثير من الارتياح والقبول ممن تحدث إليهم فى مصر وقبل أن أقدم مضمون ودلالات وقائع ذلك الحوار للقارئ الكريم أذكر سريعاً أهم ما يتعلق بهذه الشخصية الثرية فيما يلى :

* الانطباع الأول لمن يتحدث مع فان آخت يجده وبالرغم من تقدمه كثيراً فى العمر إلا أنه فى غاية الحماسة والوضوح الحاد.. لغته لا تحتل المعانى الشائبة ويتجنب أسلوب المراوغة أو مسك العصا من المنتصف كما يحدث كثيراً فى لغة الدبلوماسيين.. عندما أجريت معه الحوار كان يرتدى جاكيت زهري شبابى «روش طحن» وكان فى غاية الشباوية والحماسة وكذلك البشاشة .

* يؤمن فان آخت بالأخلاق فى السياسة وأهمية تبنى المعايير العادلة فى

العلاقات الدولية كأساس للتعايش السلمى فى العالم أجمع وتطبيق هذه المعايير خاصة فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط .

* ينتمى إلى جمعية دبلوماسية تضم عددًا كبيرًا من الرؤساء السابقين والشخصيات الدولية ومنهم الرئيس الأسبق جيمى كارتر على سبيل المثال، وهذا الشد من هذه الشخصيات يهتم بنشر مفاهيم السلام الدول العادل والحافظ على بيئة كوكب الأرض حتى لا يصل الأمر إلى حالة من التدهور البيئى «المحتمل تمامًا» والتي قد تجعل من الحياة على هذا الكوكب مكانًا يصعب على الآدميين العيش فيه ولقد أكد هذا البعد الأمير تشارلز فى زيارته الأخيرة أيضًا فى مصر قائلاً : «نعم علينا الاهتمام بالبعد الدينى .. لأنهم لم يكتشفوا لنا كوكبًا آخر للانتقال إليه إلى الآن !!» .

* يؤمن فان آخت إيمانًا واضحًا بحق الشعب الفلسطينى فى أن تكون له دولته المستقلة وسيادته عليها، وكذلك بحقه فى المقاومة المشروعة للإحتلال الذى وصفه بأنه «احتلال وحشى» BRUTAL OCCUPATION .

* يعتبر أمريكا دولة مارقة ROUGE STATE وخارجة عن الشرعية الدولية طبقًا لذات التعريف الأمريكى لهذا المصطلح، وينادى بالألا تتواجد قوات هولندية فى العراق وبأن تسارع فى الانسحاب ليس من باب تجنب تعرضها للمخاطر القائمة فى العراق ولكن من باب التوقف عن المساهمة فى الاحتلال غير المشروع للعراق والذى أقدمت أمريكا عليه خارج نطاق الشرعية الدولية .

كان ما سبق معلوما موثقة على شبكة الإنترنت إما مضمون الحوار الذى أريته معه ودلالته فيتمثل فيما يلى :

١ - بخصوص انطباعاته عن مصر، وخاصة فيما يتعلق بعلاقات المسلمين والأقباط التى تستحوذ على قدر مهم من اهتمام الزائرين لمصر من كثرة ما يروج من معلومات - كثير منا خاطئ - فى وسائل الإعلام العربية، قال فان آخت أنه رأى علاقات نموذجية وأنه بعد لقاءاته الكثيرة فى مصر، تؤكد له الانطباع بأن أحداث ما يسمى بالفتنة الطائفية لا تخرج عن كونها فى معظم حالاتها أحداثًا فردية وأن انطباعاته من السياقات الأخرى عن مصر إيجابية .

٢ - بخصوص سؤالى عن الموقف الراهن وخاصة الموقف الأوروبى الذى أوقف معوناته عن الشعب الفلسطينى بسبب صغرد خنلس للسلطة وتقييمه للوضع يرمته بدأ بالقول «أننى أشعر بالخجل الشديد بأننى أوروبى» .. فقطع المعونة عن هذا الشعب فيه ظلم كبير وموقف غير إنسانى وكذلك يتم عن معايير مزدوجة .. حيث طالبنا الفلسطينين وغيرهم بالديمقراطية فى بلادهم .. وبعد أن وضع للعالم أجمع وتحت أعين كل المراقبين دقة التنفيذ للتعبير عن رأى الشعب الفلسطينى فى الانتخابات

الأخيرة والذي أتى بحماس إلى السلطة.. فإن العقاب الذي حدث هو شيء مخز ولا ينبغي أن يكن !!؟ .

وتطرق إلى القول بأن الطرف الذي ينبغي أن يلام من قبل المجتمع الدولي هو إسرائيل واحتلالها للأراضي الفلسطينية والسؤال هو من الذي أفسد كل محاولات السلام التي تمت ؟! إسرائيل تريد إعراف حماس بها.. والسؤال الأهم ماذا فعلت إسرائيل عندما إعترفت بها منظمة التحرير الفلسطينية ؟! النتيجة معروفة لم تصل السلطة الفلسطينية في ظل الاستجابات إلى المطالبة الإسرائيلية إلا إلى نقطة الصفر التي رأيناها قبل صعود حماس.. الأمور ينبغي وأن تكن في نصابها وعلى المجتمع الدولي التدخل الإيجابي وليس لحصار وتجويع الشعب الفلسطيني.. فهذه مأساة كبرى !!» .

لقد أكد فان آخت مواقفه التي أعلنها منذ سنوات ففي ٢٤ أبريل قال بالنص الموثق على شبكة الإنترنت أن «كلاً من الولايات المتحدة وإسرائيل قد انتهكتا القانون الدولي وبصورة خطيرة وقال أن التأييد المطلق من قبل بوش لإسرائيل هو فعل غير عادل وغير مسئول !!» .

٣ - بخصوص سؤال عن كيفية التعامل مع السؤال الكبير عن «السياسة والأخلاق» في العلاقات الدولية المعاصرة يحتاج الأمر إلى سياق تفصيلي آخر ولكن الخلاصة هي «أنه بدون أخلاق ومعايير متسقة في العلاقات الدولية.. فإن العالم يحفر قبره !! والعياذ بالله». لقد أعجبتني آراء السيد فان آخت في مجال الأخلاق والسياسة ورأيها تعبر عن حقيقة النبض الإنساني السوي ولا شك أن هناك الكثيرين من أمثال فان آخت في أرجاء العالم ولكن ماذا عن أغلبية السياسيين الإنتهازيين في هذا العالم !! عندما طالته بإرسال بعض ما كتبه وما تم إصداره من خلال جمعية الرؤساء السابقين التي أشرنا لها.. قال ببشاشة سأرسل لك ذلك بالفاكس.. فبادرت ولماذا لا ترسل لى هذه الأوراق بالبريد الإلكتروني؟ فهذا أوفر . فأجاب قائلاً : «مع الأسف أنا لا أنتمى لتفاعلات هذه الشبكة الإلكترونية.. وقال ساخراً .. أنا أنتمى للمعصر الحجري» .

فهل الآراء التي أدلى بها تعبر عن ذلك .. على القارئ الكريم أن يتأمل هذه المقولة الأخيرة .

وللحديث بقية والله ولي التوفيق .

(الكاتب-الأخبار/١٨/٥/٢٠٠٦)

٢٤ - رسالة إلى العقلاء في العالم .. والمأزق الراهن ..

يقوم السيد خافير سولانا بجولة في كل من مصر والمملكة العربية السعودية ودول الشرق الأوسط في محاولة لاحتواء أزمة الرسوم الشائنة، كما نشطت كذلك عدة شخصيات مهمة في العالم لتخرج عن الصمت السلبي الذي ترك الساحة للعابثين بأمن واستقرار الشعوب في هذا العام.. تحاول كل هذه الشخصيات الكبيرة أن تقول كلمة الحق والعدل التي ينبغي أن يتفق عليها أي إنسان «سوى» وهي أنه لا ينبغي أن يكون هناك أي مساس أو اعتداء على المعتقدات والرموز الدينية من قبل أي طرف إلى طرف آخر داخل المجتمعات والثقافات وعبرها .. وهذا ما يتمشى كذلك مع كل الأعراف والقوانين والشرعية الدولية.. وهذا ما سارع إلى تأكيده الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان، وخافير سولانا وبييل كلينتون أو عدد كبير من الشخصيات الدولية. وكان آخر تصريح أطلعت عليه في هذا الصدد «٢٠٠٦/٢/١» جاء على لسان رئيسة أيرلندا التي وصفت الرسوم «الشائنة» التي نشرتها بعض الصحف المسيئة للرسول ﷺ بأنها مستفزة ووقحة .. ومن المطلوب بعد ذلك ليس المزيد من التصريحات أو حتى الاعتذارات الرسمية والتحركات للتهذبة هنا وهناك فقط، بل المطلوب اليوم منظومة متكاملة يتم تدشينها عبر العالم؛ ومع ذلك تبدو في الأفق تطورات مؤسفة أخرى، مثل «أن الشركة التي انتجت الفيلم الذي أساء إلى الإسلام لمخرجه الهولندي فان جوخ، تعزم القيام بإنتاج فيلم «أكثر سفالة».. وكما قرأت عن تصريحات الشخصيات السوية التي أدانت الصحيفة المتسببة في أزمة الرسوم، سمعت مؤخراً كذلك «أن عددا كبيرا من البريطانيين يؤيدون إعادة نشر الرسوم المسيئة والشائنة»، هذا بالرغم من أن القانون البريطاني أكثر صرامة ووضوحا من القوانين الدانيماركية أو الفرنسية أو الأوربية الأخرى، من حيث إدانته الواضحة لكل ما يمس المعتقدات والرموز الدينية. كما يبدو للمحلل الموضوعي أن هناك يداً خفية واضحة هناك دلائل كثيرة على وجودها؛ لضرب علاقة العالم العربي الإسلامي مع أوروبا، خاصة وأن وجود الشيء ونقيضه التام في ملف هذه الأزمة يتطلب منا جهوداً ضخمة علمية وسياسية وإعلامية وإسلامية خاصة، تنطلق وتختبر الافتراضات التي قد تخل الأزمة أو تتسبب في المزيد من تفاقمها. وفيما يلي اجتهاد متواضع أضعه أمام الجميع لمنطلقات افتراضيات التعامل مع هذه الأزمة وهي:

(١) لا بد من وجود «وتدشين» حشد كبير من الخبراء والسياسيين والإعلاميين ممن يدعمون ما يمكن تسميته بحركة «حوار الحضارات والثقافات لا صدامها».. بحيث يمكنها «ممارسة التحركات المستمرة التي لا يكمل ولا يمل أنصار حركة

«صدام الحضارات» منها، والتي تستهدف أولاً العالم العربي والإسلامي.. وأدعو إلى أن تتبنى هنا في مصر هذه الحركة الكبيرة التي ينبغي أن يكون للأزهر دوره المحوري فيها.

٢) لا بد من اتفاق الخبراء على أسلوب فهم وتحليل الثقافات، فهذا موضوع مركب ومعقد وبه فجوات كبيرة، ولقد قدمت تفاصيل كثيرة بشأنه في مؤتمر دولي كبير انعقد في يناير من هذا العام «٢٠٠٦» وأشرت فيه إلى فجوة الرؤية العلمية بين الخبراء في موضوع إدارة الاختلافات الثقافية. وسأعود إلى ذلك تفصيلاً في مقال قادم بإذن الله.

٣) لا بد من الكف عن التعقيم الزائد والمتكلف وغير العلمي من قبل الكثيرين في الغرب أولاً، وثانياً في العالم العربي الإسلامي عن الحديث عن الغرب بصفته كتلة صماء واحدة، وكذلك العالم العربي الإسلامي. فهناك عناصر الغالبية الصامتة - في كل من العالمين - الراضة للاختطاف الحادث بين متطرفي صدام الحضارات على الجانبين، أو المستجيبين لهم عن قصد أو عن غير قصد، وخاصة على الجانب الغربي الذي ظهرت منه جهاراً نهاراً الدعوة للصدام وأخذت شكلاً خطيراً من أشكال التنظير العلمي الزائف بالطبع.. ولعدد معروف جداً من أسماء الباحثين الغربيين «الممكنين»، فلا بد من مناظرتهم علمياً، ولقد قمت بمجهود فردي في هذا الصدد ولكن لا بد من الجهود الجماعية، فمناظرتهم لا تعني التنازل معهم بقدر ما تعني منع استقطابهم للجماهير التي ينقصها المعلومات الصحيحة عن الإسلام والمسلمين، ولو كانت تصلهم لعرفوا «معنى توقير النبي ﷺ في الثقافة الإسلامية»، لفهموا التحرك الغاضب عندما تمت الإساءة لشخص الرسول محمد ﷺ، ولعلموا كذلك من هو «الصادق الأمين» ومن هو «سيد الخلق أجمعين».. إن الحوار إذن مهم لتوصيل حقائق المعلومات، ووقف استقطاب «أنصار الصدام الحضاري» للجماهير في كل من الغرب والعالم الإسلامي؛ ليحققوا من هذا الصدام مآرب سياسية واقتصادية شيطانية. كذلك فإن الحوار يستدعي إقامة رؤوس كبارى قوية مع كل أصحاب العقول المنصفة في الغرب الذين يعرفون وينطلقون من أرضية علمية وأخلاقية «وسنعود إلى ذلك تفصيلاً» تجعل الحوار وليس الصدام هو الأمل الثابت بين الشعوب، ولكن ينبغي أن تكون هناك القناة التفاعلية القوية التي أرى أن القاهرة ينبغي أن تطلع عليها؛ حتى لا يكون الصدام والصراخ والفوضى صاحب اليد العليا وفي هذا فليتنافس المتنافسون، والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

(الكاتب-الأخبار ٢٠٠٦/٢/١٥)